المنـاقـب

□ المناقب □

قال تعالى : ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ [الواقعة : ١٠] .

من صفا صُفِّيَ له ، ومن كدّر كُدِّرَ عليه .

قال الحسن وقتادة : ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ ؛ أي من كل أمة .

وقال ابن سيرين : الذين صلوا للقبلتين .

وقال مجاهد : هم الأنبياء عليهم السلام .

وقال عثمان بن أبي سودة : أولهم رواحًا إلى المسجد ، وأولهم خروجًا في سبيل الله .

قال ابن كثير :

وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أُمِروا ، كما قال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **أولئك المقربون في جنات النعيم** ﴾[(١)] .

يقول ابن القيم في صفة أول زمرة تدخل الجنة :

هذا وأول زمرة فوجوههمْ　　كالبدر ليل الست بعد ثمان
السابقون هُمُ وقد كانوا هنا　　أيضًا أولي سبق إلى الإحسان

وهؤلاء هم السابقون الذين سبقوا في الدنيا إلى الخيرات ، وسبقوا في الآخرة إلى الجنات ، فإن السبق هناك على قدر السبق هنا[(٢)] .

قربت قلوبهم من بساط المعرفة ، وإلى الحق في دار الدنيا ، فقال الله عنهم : ﴿ **أولئك المقربون** ﴾ . النعيم الأكبر والأسنى ؛ نعيم القرب ، وجنات النعيم

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٤٩٠ - ٤٩١) .(٢) شرح النونية (٢/٣٤٢-٣٤٣) .

تساوي ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب .

اليوم جنان العرفان ، وغدًا جنان الرضوان .

يقول قائلهم : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها القلب طربًا ، وأقول : إنْ كان أهل الجنة في مثل هذا العيش إنهم لفي عيش طيب .

لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ، فهم أبدًا في الجنة ، ولا إخراج لهم منها . وأبدًا لهم القرب والزلفى ، لا حجاب لهم عنها .

والسابقون السابقون إنهم هم وكفى ، فهو مقام لا يزيده الوصف شيئًا .

السابقون بصدق القدم، وعلو الهمم ﴿**ثلة من الأولين وقليل من الآخرين**﴾.

يقول ابن كثير :

وقد اختلفوا في المراد بقوله : ﴿ **الأولين** ﴾ و ﴿ **الآخرين** ﴾ .

فقيل المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالآخرين : هذه الأمة . هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري ، رواها عنهما ابن أبي حاتم ، وهو اختيار ابن جرير .

وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظر ، بل هو قول ضعيف ؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يُقابَلَ مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم .

فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله : ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ ؛ أي من صدر هذه الأمة ، و ﴿ **قليل من الآخرين** ﴾ ؛ أي من هذه الأمة .

قال الحسن : ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ ثلة ممن مضى من هذه الأمة .

وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية : ﴿ **ثلة من الأولين وقليل من الآخرين** ﴾ : كانوا يقولون – أو يرجون أن يكونوا – كلهم من هذه الأمة .

فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شك أن أول

كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم ، كل أمة بحسبها . ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .... »(١) .

أما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر . لا يدرى أوله خير أم آخره »(٢) ، فهذا الحديث - بعد الحكم بصحة إسناده - محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى مَنْ بعدهم ، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في آخرها ، وتثبت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم . وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكد ، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ، ولا تعلق أساسه فيها ، والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم ، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة ؛ لشرف دينها ، وعظم نبيها ﷺ(٣) .

ومن البشارة العظيمة لهذه الأمة استمرار العاملين بأحكام الله في كل قرن، وأما قوله تعالى: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير**﴾ [فاطر: ٣٢]

---

(١) ورد الحديث بلفظ « خير الناس قرني » رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن حبان وأحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد عن عمار ، وأحمد والترمذي عن أنس ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وعن ابن عمرو . والطيالسي ، وابن حبان ، وأبو نعيم في الحلية . ومعنى الحديث كما قال الرامهرمزي : إن الخير شامل لها ، وإن كان معلومًا أن القرن الأول خير من القرن الثاني.وقال الشاعر يذكر امرأة أعجبه منها بيانها وطرفها وثغرها :

أشارت بأطراف لطافٍ وأجفنٍ مراض وألفاظ تنعم بالسحر
فوالله ما أدري أفي الطرف سحرها أم السحر منها في البيان وفي الثغر

يريد أن السحر في جماعتها اهـ .

(٣) تفسير ابن كثير (ج٧ / ٤٩٣) .

ليس خاصًّا بقرنٍ دون قرن ، بل هو عامّ في كل العصور حتى تقوم الساعة[١].

عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال : « في كل قرن من أمتي سابقون »[٢] .

○ المهاجـرون ○

قال ابن القيم : عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرا منه .

لما ترك المهاجرون ديارهم لله ، وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم ؛ أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا ، وملّكهم شرق الأرض وغربها[٣] .

بل هم في الآخرة أسبق الناس دخولا للجنة .

ورحم الله القائل مبيّنًا إحسان الله وجزيل عطائه :

من وقعت عليه غبرة في طريقهم ؛ لم تقع عليه قترة فراقهم .

من خطا خطوة إليهم ، وجد حظوة لديهم .

من رفع إليهم يدًا ؛ أجزلوا له رغدًا .

من التجأ إلى سدة كرمه ؛ آواه في ظل نعمه .

من شكا فيهم غليلًا ؛ مهدوا له في دار فضلهم مقيلًا .

طلّق الصحابة الدنيا ؛ فاشتاقت إليهم الجنان . وصبروا على شَظَفِها ؛ فغدًا لهم رغد العيش ، وسعادة الجَدِّ ، وكمال الرفد ، يلبسون حلل الوصل ، ويتوجون بتاج القرب ، ويحملون على المباسط ، ويتكئون على الأرائك ، ويشمون رياحين الأنس والجنة ، يقيمون في مجال الزلفة ، ويسقون شراب المحبة .

---

(١) السلسلة الصحيحة (٥ / ٢) .

(٢) صحيح : أخرجه أبو نعيم في الحلية ، وعزاه السيوطي في « الجامع » للحكيم الترمذي فقط ، ورواه الذهبي في تذكرة الحفاظ من طريق أبي نعيم وقال : حديث غريب جدًّا ، وإسناده صالح. وقال الألباني: إسناده جيد، انظر السلسلة الصحيحة (٥/٧) الحديث رقم ٢٠٠١.

(٣) روضة المحبين (ص٤٤٣) .

نعم الثواب ثوابهم ، نعم الرب ربهم ، نعم الدار دارهم ، نعم الجار جارهم ؛ نعم الحال حالهم .

○ الصديق الأكبر رضي الله عنه ○

قال صاحب الاستيعاب : وسمي الصديق لبداره إلى تصديق رسول الله ﷺ في كل ما جاء به[١] .

أنا مولايَ إمامٌ ضحكتْ   من ثنايا فضله آيُ الزمرْ

وقال أبو محجن الثقفي :

وسُمّيت صِدِّيقًا وكُلُّ مهاجر   سواك يُسمى باسمه غير منكرِ

وكان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يحلف بالله أن الله عز وجل أنزل اسم أبي بكر من السماء « الصديق » .

وقال علي في رثائه لأبي بكر : صدّقت رسول الله ﷺ حين كذّبه الناس ، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، سمّاك الله في تنزيله صديقًا فقال : ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدّق به** ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ ليلة أسري به لجبريل : « إن قومي لا يصدّقوني ، فقال له جبريل : يصدقك أبو بكر ، وهو الصديق »[٢] .

﴿ **ثاني اثنين** ﴾ : قال الزجاج : نصره الله أحد اثنين ؛ أي نصره منفردًا إلا من أبي بكر . وهذا معنى قول الشعبي : عاتب الله أهل الأرض جميعًا في هذه الآية غير أبي بكر[٣] .

أقسم بالله يمينًا صادقًا   لو فاضلَ الأملاكَ بالصدق فضَلْ

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٢ / ٢٣٥ - ٢٣٧) .
(٢) التبصرة (١ / ٣٣٨ - ٤٠٢) .
(٣) التبصرة (١ / ٣٩٦) .

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن ابن إسحق :

قال رسول الله ﷺ : « إن الله قد أَذِن لي في الخروج والهجرة » قالت عائشة : فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ؟ قال : « الصحبة » قالت : فوالله ما شعرت قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي .

وقال ابن كثير :

روى أبو القاسم البغوي عن ابن أبي مليكة أن النبي ﷺ لمّا خرج هو وأبو بكر إلى ثور ، فجعل أبو بكر يكون أمام النبي ﷺ مرة ، وخلفه مرة ، فسأله النبي ﷺ عن ذلك ، فقال : إذا كنت خلفك خشيت أَنْ تُؤتَى من أمامك ، وإذا كنتُ أمامك خشيت أن تُؤتى من خلفك ، حتى إذا انتهى لغار من ثور . قال أبو بكر : كما أنت حتى أُدخِل يدي فأحسه وأقصه ؛ فإن كانت فيه دابة أصابتني قبلك .

قال نافع : فبلغني أنه كان في الغار جحر فألقم أبو بكر رجله ذلك الجحر ؛ تخوفًا أن يخرج منه دابة أو شيء يؤذي رسول الله ﷺ .

وهذا مرسل ، وقد ذكرنا له شواهد أُخر في سيرة الصديق - رضي الله عنه - .

يقول ابن القيم :

هذا وأمة أحمد سبّاق با ... قي الخلق عند دخولهم بجنانِ

وأحقهم بالسبق أسبقهم إلى الـ ... إسـلام والتصديق بالقرآنِ

وكذا أبو بكر هو الصديق أسْـ ... ـبقهمْ دخولًا قولَ ذي برهانِ[1]

لمّا وفى الصدّيق حُلى الإيمان فيدعى يوم القيامة من كل أبواب الجنان .

قال ابن القيم عن أبواب الجنة :

ولسوفَ يُدعى المرءُ من أبوابها ... جَمْعًا إذا وفّى حُلَى الإيمانِ

منهم أبو بكر هو الصدّيق ذا ... ك خليفة المبعوث بالقرآنِ

---

(١) النونية لابن القيم (٢ / ٣٥٠) .

ولكل نوع من الأعمال الصالحة باب من أبواب الجنة ، يدخل منه أهله المبرزون فيه ، وقد يدعى المرء من الأبواب كلها إذا وفّى جميع شعب الإيمان ، ومن هؤلاء صديق هذه الأمة ، وأفضل الناس جميعًا بعد النبيين أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ . فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله ؛ دُعي من أبواب الجنة : يا عبد الله ، هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريّان ، ومنْ كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة » قال أبو بكر : هل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[1] .

يقول علي بن أبي طالب في رثاء الصديق : آسيتَه حين بخلوا ، وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم ، فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها ، فلهذا جلبت نفقته عليه « ما نفعني مال ، ما نفعني مال أبي بكر »[2] .

روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ماخلا أبا بكر ، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة ، ما نفعني مال أحد قط ، ما نفعني مال أبي بكر » فبكى أبو بكر وقال : فهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله ؟ »[3] .

وقال ﷺ : « أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار »[4] .

لما طُبِعَ رسول الله ﷺ على أشرف الخلائق ، كان منها الكرم ، فأعطى غنمًا بين جبلين ، فلمّا سار في فيافي الجود تبعه صديقه فجاء بكل ماله ، فقال له : « ما أبقيت ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

تعب في المكاسب فنالها حلالًا ، ثم أنفقها حتى جعل في الكساء خِلالًا ،

---

(1) رواه البخاري ومسلم ، وأحمد في مسنده ، والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .
(2) الفوائد (72) . (3) التبصرة (1/399). (4) رجاله ثقات .

قال له الرسول أسلم ، فكان الجواب نَعَم ، بِلا لَا ، أما سمعت الفاروق يقول : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا بلالًا .

أبو بكر حبا في الله مالا   فأعتق في محبته بِلَالَا
وقد واسى النبيَّ بكل فضل   وأسرع في إجابته بِلا لا
لو أن البحر يقصده ببعض   لما ترك الإله به بِلَالَا[١]

كانت تحفة ﴿ ثاني اثنين ﴾ مدخرة للصديق دون الجميع .

قال ابن حجر : فَضْلُ أبي بكر الصديق ؛ لأنه انفرد بهذه المنقبة ، حيث صاحب رسول الله ﷺ في تلك السفرة ، ووقاه بنفسه[٢] .

فهو الثاني في الإسلام ، وفي بذل النفس ، وفي الزهد ، وفي الصحبة ، وفي الخلافة ، وفي العمر ، وفي سبب الموت ؛ لأن الرسول ﷺ مات من أثر السم ، وأبو بكر سُمَّ فمات . كان عُمْر الصديق يوم توفي ثلاثًا وستين سنة ، للسن الذي توفي رسول الله ﷺ قاله ابن القيم في الفوائد . وقد كان الصديق – رضي الله عنه – ثاني اثنين في العريش يوم بدر .

وقد جمع الله بينهما في التربة كما جمع بينهما في الحياة[٣] .

انظر إلى سر الاقتران ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ لفظًا وحكمًا ومعنى ، إذ يقال : رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فلما مات قيل : خليفة رسول الله ، ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته ، فقيل : أمير المؤمنين[٤] .

فكانت المفخرة العظمى ما ورد في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ : « إنّ أَمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقى في المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبي بكر » .

نطقت بفضله الآيات والأخبار ، فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار ، كلما

---

(١) التبصرة (١ / ٤٠٤) .
(٢) الفتح (٧/ ١٢) .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٨/٤).
(٤) الفوائد (٧٢) .

تُليت فضائله علا عليهم الغبار ، أترى لم يسمع الروافض الفجار ﴿ **ثاني اثنين إذْ هُما في الغار** ﴾ ؟

من كان قرين النبي في شبابه ؟ من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه ؟ مَنْ ذا الذي أفتى بحضرته سريعًا في جوابه ؟ من أول مَنْ صلّى معه ؟ منْ آخر مَنْ صلّى به ؟ مَن الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه ؟

استوحش الصديق من خوف الحوادث ، فقال الرسول : ما ظنك باثنين والله الثالث .

والله ما أحببناه لهوانا ، ولا نعتقد في غيره هوانا ، ولكن أخذنا بقول عليّ وكفانا : رضيك رسول الله لديننا ، أفلا نرضاك لدنيانا[1] .

وانظر رحمك الله إلى تصديق الصديق - رضي الله عنه - للنبي ﷺ في المواطن التي يعز فيها تصديقه :

قال الحافظ في الفتح :

ومن حديث أبي الدرداء : « إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لي صاحبي » ؟ مرتين، فما أوذي بعدها[2] .

قال ابن كثير :

انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة فأصبح يخبر قريشًا بذلك ، فذكر أنه كذّبه أكثر الناس ، وارتدت طائفة بعد إسلامها ، وبادر الصديق إلى التصديق ، وقال : إني لأصدقه في خبر السماء بكرة وعشيا ، أفلا أصدقه في بيت المقدس[3] ؟!!.

قال ابن حجر :

روى البيهقي في الدلائل عن أبي سلمة قال : افتتن ناس كثير - يعني عقب الإسراء - فجاء ناس إلى أبي بكر ، فذكروا له ، فقال : أشهد إنه لصادق ،

(١) الفوائد لابن القيم ص٨٤ - ٨٥ . طبع منشورات دار مكتبة الحياة .

(٢) فتح الباري (٧ / ٢٢) . (٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ١٠٨ .

فقالوا : وتصدقه أنه أتى الشام في ليلة واحدة ، ثم رجع إلى مكة ؟! قال : نعم ، إني أصدقه بأبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء . قال : فسمي بذلك الصديق .

أما يوم الحديبية فتجلى في صدق الصديق بأوضح صورة ، حتى إن كلماته لعمر هي نفس كلمات النبي ﷺ لعمر .

ففي حديث المسور ومروان : دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ . فقال النبي ﷺ : « إنا لم نقضِ الكتاب بعد » قال : فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا . فقال النبي ﷺ : « فأجزه لي » .. قال : ما أنا بمجيزه لك . قال ﷺ : « بلى فافعل » . قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : بل قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ؟ ألا تَرَوْن ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا في الله. قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت : ألست نبي الله حقًا ؟ قال : « بلى » . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : « بلى » . قلت : فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : « إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري » . قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : « بلى ، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ » قال : قلت : لا . قال : « فإنك آتيه ومطوّف به » . قال : فأتيت أبا بكرٍ ، فقلت : يا أبا بكر ، أليس هذا نبي الله حقًا ؟ قال : بلى . قال : قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : أيها الرجل ، إنه لرسول الله ﷺ ، ليس يعصي ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه[1]، فوالله إنه لعلى الحق . قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي

---

(١) فاستمسك بغرزه : أي اعتلق به ، وأمسكه ، واتبع قوله وفعله ، ولا تخالفه ، فاستعار له الغرز ، كالذي يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره (اللسان ٥ / ٣٢٣٩) .

البيت ونطوف به ؟ قال : بلى . أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك آتيه ، ومطوف به . قال عمر : فعملت لذلك أعمالًا(١) .

وعند أحمد : ما زلت أصومُ وأتصدق وأعتق من الذي صنعت ؛ مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكوَن خيرًا .

وعند أحمد: أنه أتى أبا بكر أولًا، فقال: يا أبا بكر ، أو ليس برسول الله ﷺ ، أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الذلة في ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر الزم غرزه حيث كان ، فإني أشهد أنه رسول الله .

ختام مسك :

ونختم بختام مسك من مواقف الصديق في قصة الإفك .

يقول سيد قطب :

وها هو ذا أبو بكر الصديق في وقاره وحساسيته وطيب نفسه ، يلذعه الألم وهو يُرمىٰ في عرضه ، في ابنته - زوج محمد - صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه ، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل ، لا يطلب دليلًا من خارجه .. وإذا الألم يفيض على لسانه ، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم ، فيقول : والله ما رمينا بهذا في الجاهلية ، أفنرضى به في الإسلام ؟! وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل . حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة : أجب عني رسول الله- ﷺ- قال في مرارة هامدة : والله ما أدري ما أقول لرسول الله- ﷺ-(٢) .

وأنزل الله براءة عائشة - رضي الله عنها - فحلف الصديق ألَّا ينفع مسطح ابن أثاثة بنافعة بعد ما قال في عائشة ما قال . ونزل قول الله تعالى : ﴿ **ولا يأتلِ أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾ [النور : ٢٢] .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الشروط .. حديث الحديبية .

(٢) الظلال (٤ / ٢٤٩٨) .

قال ابن كثير :

نزلت في الصديق حين حلف ألَّا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة بعد ما قال في عائشة ما قال ، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه . شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطفُ الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثاثة فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكينًا لا مال له ، إلا ما ينفق عليه أبو بكر - رضي الله عنه - وكان من المهاجرين في سبيل الله . وقد دَلَق دَلْقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها وكان الصديق- رضي الله عنه- معروفًا بالمعروف ، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾ أي : فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفرُ لك ، وكما تصفح نصفح عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى ، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا ، ثم رجَعَ إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدًا ، في مقابلة ما قال : والله لا أنفعه بنافعة أبدًا ، فلهذا كان الصديق هو الصديق[1].

يقول سيد قطب :

وهنا نطلع على أفق عالٍ من آفاق النفوسِ الزكية ، التي تطهرت بنور الله أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أبي بكر الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه ، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه ، فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ، وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحي : ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ ؟ حتى يرتفع على الآلام ويرتفع على مشاعر الإنسان ، ويرتفع على منطق البيئة ، وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله ، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق ، يقول : بلى ، والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، ويحلف : والله لا

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣١) .

أنزعها منه أبدًا . ذلك في مقابل ما حلف : والله لا أنفعه بنافعة أبدًا .

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ، ويغسله من أوضار المعركة ، ليبقى أبدًا نظيفًا طاهرًا زكيًّا مشرقًا بالنورِ[١] ..

○ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ○

وهذا الفاروق ، الذي تطيب المجالس بذكره ، يصدق فيه : أن من خاف الله أخاف الله منه كل شيء والجزاء من جنس العمل .

فقد كان يسمع القرآن فيغشى عليه فيحمل صريعا إلى منزله ، فيعاد أيامًا ، ليس به مرض إلا الخوف .

وقد بلغ من خوفه أن حفرت الدموع خطين أسودين في وجهه من كثرة بكائه .

وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال لعمر : « والذي نفسي بيده ، ما لَقِيكَ الشيطان قط سالكًا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجِّك ».

وقال ﷺ : « إن الشيطان ليفرَقُ منك يا عمر »[٢].

ويرحم الله حافظًا لما قال :

قد فرّ شيطانها لما رأى عمرًا ... إن الشياطين تخشى بأس مخزيها

وقال ﷺ : « من تواضع لله رفعه »[٣].

انظر يا أخي إلى عمر وحاله عند فتحه لبيت المقدس .

قال ابن كثير :

عن أبي العالية قال : قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيلياء ، على

---

(١) الظلال (٤ / ٢٥٠٥) .

(٢) صحيح على شرط مسلم : رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن حبان عن بريدة انظر صحيح الجامع (١٦٥٠) والسلسلة الصحيحة (١٦٠٩) .

(٣) صحيح : رواه أحمد وهو جزء من حديث عند مسلم ورواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة .

جمل أورق تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب ، وِطاؤه كساءٌ انبجاني ذو صوف هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبة نمرة أو شملة محشوة ليفًا ، هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرّق جنبه . فقال : ادعوا لي رأس القوم ، فدعوا له الجلومس ، فقال : اغسلوا قميصي وخيّطوه وأعيروني ثوبًا أو قميصًا . فأتي بقميص كتان فقال : ما هذا ؟ قالوا : كتان . قال : وما الكتّان ؟ فأخبروه . فنزع قميصه فغسل ورقع وأتي به ، فنزع قميصهم ولبس قميصه . فقال له الجلومس : أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئًا غير هذا ، وركبت برذونا لكان ذلك أعظم في أعين الروم . فقال : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب بغير الله بديلًا . فأتي ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل فركبه بها فقال : احبسوا احبسوا ، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا ، فأتي بجمله فركبه .

ولله در حافظ إبراهيم حين يقول في عمريته :

يا منْ صدفتَ عن الدنيا وزينتها ... فلمْ يغرك من دنياك مُغْرِيها
ماذا رأيت بباب الشام حين رأوْا ... أن يُلبسوك من الأثواب زاهيها
ويركبوك على البرذون تقدمه ... خيلٌ مطهَّمة تحلو مرائيها
مشى فهملج مختالًا براكبه ... وفي البراذين ما تزهى بعاليها
فصحت: يا قوم، كاد الزهو يقتلني ... وداخلتني حَالٌ لستُ أدريها
وكاد يصبو إلى دنياكم عمرٌ ... ويرتضي بيع باقيها بفانيها
ردوا ركابي فلا أبغي به بدلًا ... ردوا ثيابي فحسبي اليوم باليها

وعن طارق بن شهاب قال : لما قدم عمر الشامَ عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره ، ونزع موقيه فأمسكهما بيد ، وخاض الماء ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة : قد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض ، صنعت كذا وكذا . قال : فصك في صدره . وقال :أَو لوغيرك يقولها يا أ با عبيدة ، إنكم كنتم أذلَّ الناس وأحقر الناس وأقلَّ الناس ، فأعزكم لله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العز

بغيره يذلكم الله[١] .

رضي الله عنك يا بن الخطاب .. لما قدم الشام تلقاه أبو عبيدة ورءوس الأمراء ، فترجّل أبو عبيدة وترجّل عمر ، فأشار أبو عبيدة ليقبل يد عمر ، فهمّ عمر بتقبيل رجل أبي عبيدة ، فكف أبو عبيدة فكفّ عمر[٢] .

قال ابن كثير : عن عمر لما فتح بيت المقدس :

ثم نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه وقبائه ، ونقل المسلمون معه في ذلك . وسخر أهل الأردن في نقل بقيتها ، وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة ؛ لأنها قبلة اليهود ، حتى إن المرأة كانت ترسل خرقة حيضتها من داخل الحوز لتلقى في الصخرة ، وذلك مكافأة لما كانت اليهود عاملت به القمامة ، وهي المكان الذي كانت اليهود صلبوا فيه المصلوب ، فجعلوا يلقون على قبره القمامة .

وقد كان هرقل حين جاءه الكتاب النبوي ، وهو بإيلياء وعظ النصارى فيما كانوا قد بالغوا في إلقاء الكناسة على الصخرة ، حتى وصلت إلى محراب داود ، قال لهم : إنكم لخليق أن تقتلوا على هذه الكناسة مما امتهنتم هذا المسجد ، كما قتلت بنو إسرائيل على دم يحيى بن زكريا ، ثم أمروا بإزالتها فشرعوا في ذلك ، فما أزالوا ثلثها حتى فتحها المسلمون ، فأزالها عمر بن الخطاب[٣] .

اتخذ النصارى مكان قبلة اليهود مزبلة ، في مقابلة ما صنعوا في قديم الزمان وحديثه . فيأتي الفاروق ، ويزيل ما على الصخرة من كناسة ، ويكنسها بردائه .

وانظر الأعاجيب في تواضع عمر :

قال طلحة بن عبد الله : خرج عمر ليلة في سواد الليل فدخل بيتًا ،

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ٦١) .
(٢) السابق (٤ / ٥٧) .
(٣) البداية والنهاية (٤ / ٥٧) .

فلما أصبحت ذهبت إلى ذلك البيت ، فإذا عجوز عمياء مقعدة ، فقلت لها : ما بال هذا الرجل يأتيكي ؟ فقالت : إنه يتعاهدني مدة كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ، ويخرج عني الأذى . فقلت لنفسي : ثكلتك أمك يا طلحة ، أعثرات عمر تتبع[١]؟ .

فكيف كان جزاء تواضعه النبيل :

عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب »[٢] .

وعن عبد الله بن حنطب قال : قال رسول الله ﷺ : « هذان السمع والبصر » يعني : أبا بكر وعمر[٣] .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أبو بكر وعمر من هذا الدين ، كمنزلة السمع والبصر من الرأس »[٤] .

أي رفعة بعد هذه الرفعة ، لمّا تواضعا لله والجزاء عند الله من جنس العمل .

بل صح عن رسولنا ﷺ أنه قال :«هذان سيِّدَا كهول أهل الجنة ؛ من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين ، لا تخبرهما يا علي » يعني : أبا بكر وعمر[٥] .

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ١٣٩ - ١٤٠) .

(٢) حسن : رواه أحمد والترمذي والحاكم عن عقبة ، والطبراني في الكبير عن عصمة بن مالك ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٦٠ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٣٢٧ .

(٣) صحيح : رواه الترمذي والحاكم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٨٨١ .

(٤) حسن : أخرجه الطبراني والخطيب في تاريخ بغداد ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٨١٥ .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن أنس وعلي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٢٢ .

وانظر إلى قصته مع الهرمزان بعد هزيمة الفرس .

أتى وفد المسلمين وفيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان ومعهم الخُمس من الغنائم ، فدخلوا المدينة ، فتيمموا منزل أمير المؤمنين عمر فلم يروا أحدًا فرجعوا ، فإذا غلمان يلعبون فسألوهم عنه فقالوا : إنه نائم في المسجد متوسدًا برنسًا له ، فرجعوا إلى المسجد فإذا هو متوسد برنسًا له كان قد لبسه للوفد ، فلما انصرفوا عنه توسد البرنس ونام وليس في المسجد غيره ، والدرة معلقة في يده . فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا . وجعل الناس يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه ، وجعل الهرمزان يقول : وأين حجّابه ؟ أين حرسه ؟ فقالوا : ليس له حجاب ولا حرس ، ولا كاتب ولا ديوان . فقال : ينبغي أن يكون نبيًّا . فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء[1] .

يقول حافظ إبراهيم :

وراعَ صاحبَ كسرى أنْ رأى عمرًا	بين الرعية عطْلًا وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أنَّ لها	سورًا من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقًا في نومه فرأى	فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملًا	ببردة كاد طول العهد يبليها
فهانَ في عينه ما كان يُكْبره	من الأكاسرِ والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلًا	وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أَمِنْتَ لما أقمت العدل بينهمُ	فنمتَ نومَ قرير العين هانيها

والجزاء من جنس العمل .

وهو القائل – رضي الله عنه – أيها الناس ، أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم ، واعملوا لآخرتكم تُكْفَوْا أمر دنياكم .

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ٨٩) .

○ ذو النورين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ○

عن سعيد بن العاص أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثا أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ ، وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة ، فأذن لأبي بكر وهو كذلك ، فقضى إليه حاجته ثم انصرف ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على ذلك الحال ، فقضى إليه حاجته ثم انصرف . قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس ، وقال لعائشة : « اجمعي عليك ثيابك » . فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن عثمان رجل حيي ، وإني خشيت إنْ أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إليّ في حاجته » .

وقال ليث : وقال جماعة من الناس : إن رسول الله ﷺ قال لعائشة : « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة »[1] .

وعن حفصة بنت عمر - رضي الله عنها - قالت : دخل عليّ رسول الله ﷺ ذات يوم ، فوضع ثوبه بين فخذيه ، فجاء أبو بكر يستأذن فأذن له ورسول الله على هيئته ، ثم جاء عمر يستأذن فأذن له ، ورسول الله على هيئته ، وجاء ناس من أصحابه فأذن لهم ، وجاء علي يستأذن فأذن له ، ورسول الله على هيئته ، ثم جاء عثمان بن عفان فأستأذن فتجلل ثوبه ثم أذن له ، فتحدثوا ساعة ثم خرجوا ، فقلت : يا رسول الله ، دخل عليك أبو بكر وعمر وعلي وناس من أصحابك وأنت في هيئتك لم تحرّك ، فلما دخل عثمان تجلّلت ثوبك ؟ قال : « ألا أستحيي ممن تستحي منه الملائكة »[2] .

---

(١) إسناده صحيح : رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة رقم ٧٩٣ ، ٧٤٧ ؛ والحديث في مسلم من طريق ليث ، مثله .

(٢) إسناده صحيح : ورواه أحمد في فضائل الصحابة المجلد الثاني حديث رقم ٧٤٨ ،=

قال عثمان - رضي الله عنه - : ما من عامل يعمل عملًا إلّا كساه الله رداء عمله .

وقال يحيى بن معاذ : من استحيى من الله مطيعًا ، استحيى الله منه وهو مذنب .

وقال ﷺ : « عثمان حيي تستحي منه الملائكة »[1] .

قال المناوي في فيض القدير (٤ / ٣٠٢) :

مقام عثمان مقام الحياء ، والحياء فرع يتولد من إجلال من يشاهده ويعظم قدره ، مع نقص يجده في النفس ، فكأنه غلب عليه إجلال الحق تعالى ، ورأى نفسه بعين النقص والتقصير ، وهما من جليل خصال العباد المقربين ، فعلت رتبة عثمان كذلك ، فاستحيت منه خلاصة الله من خلقه ، كما أن من أحب الله أحب أولياءه ، ومن خاف الله خاف منه كل شيء .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « عثمان أحيى أمتي »[2] .

أكثرها حياءً والحياء منشأ الآداب ، قيل : لم يضع يمينه على فرجه منذ بايع النبي ﷺ ، قيل :

فلا وأبيك ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقى اللحاءُ

وقال آخر :

إني كأني أرى مَنْ لا حياءَ له ... ولا أمانةَ وسط القوم عريانًا

= وهو في المسند مثله سندا ومتنًا ، وله شاهدٌ من حديث عائشة أخرجه مسلم وأحمد .

(١) صحيح : رواه ابن عساكر عن أبي هريرة ، وصحح الحديث الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٨٧٣ .

(٢) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٨٧٢ .

○ علي بن أبي طالب ○

كيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية اجتماع شياطين قريش في دار الندوة في يوم الزحمة ، وحكى ما كان بينهم وبين إبليس الذي تبدّى لهم في صورة الشيخ النجدي ، واستقر رأيهم على ما قاله أبو جهل بن هشام.

أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتًى شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا ، ثم نعطي كل فتًى منهم سيفًا صارمًا ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم .

فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له . فأتى جبرائيل رسول الله ﷺ فقال له : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه .

قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : « نَمْ على فراشي ، وتسبَّج ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » . وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذ ينام .

ثم خرج رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآيات : ﴿ **يس . والقرآن الحكيم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ [يس : ١ - ٩] . ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمدًا . قال خيّبكم الله ، قد والله ، خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ، وانطلق لحاجته ،

أفما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يدًا على رأسه ، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون ، فيرون عليًّا على الفراش متسجيًا ببرد رسول الله ﷺ فيقولون : والله ، إن هذا لمحمدٌ نائمًا على برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علي عن الفراش ، فقالوا : والله ، لقد صدقنا الذي كان حدثنا .

حمى المغوار حيدرة[1] الدعوة في شخص نبيها ﷺ ونام في فراشه في أصعب ليلة مرّت بها الدعوة ، رجل ينام في الفراش وهو يعلم أن على الباب رجالًا لا يريدون إلا رأس النائم على الفراش ، فلما قلق به الفراش ليلة من أجل نبيه ، أسعد الله فراشه بفاطمة بنت نبيه ﷺ التي تجلببت في جلباب كمالها . وأعطاه الرسول ﷺ الأهل والمرحب ، وأصدقه درعه الحُطَمِيّة ، فأهديت إليه ومعها خميلة ومرفقة من أدم حشوها ليف ، وقربة ومنخل وقدح ورحًى وجرابان . ودخلت عليه وما لها فراش غير جلد كبش ينامان عليه بالليل وتعْلف عليه الناضح بالنهار ، وكانت هي خادمة نفسها .

تالله ، ما ضرها ذلك .

وفي الصحيحين . أن رسول الله ﷺ قال لها : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين » .

وفي الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال : « فاطمة بضعة مني ، فمن أغضبها أغضبني » .

عن أنس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة ؛ علي وعمّار وسلمان »[2] . ونعم الجزاء ..

---

(١) هو اسم علي بن أبي طالب قال :

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

وحيدرة هو : الأسد .

(٢) حسن : رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٩٤ .

عليّ بن أبي طلب لما بكت الدنيا عليه ، اشتاقت وضحكت الآخرة إليه .

كان يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب(١) .

هذا الذي كان يقف وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، وهو يقول : يا دنيا أبي تعرّضت ؟! أم بي تشوّفت ؟! هيهات غرّي غيري ، قد بتتك ثلاثًا لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشكِ حقير ، وخطركِ كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ووحشة الطريق .

رضي الله عن علي فقد حمى الدعوة أيما حماية .

ففي الصحيح من مناقب علي : قال الحسن بن علي : يأيها الناس ، لقد فارقكم أمسِ رجلٌ ما سبقه الأولون ولا يدركه الآخرون ، لقد كان رسول الله ﷺ يبعثه البعث فيعطيه الراية ، فما يرجع حتى يفتح الله عليه ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره - يعني عليًا - رضي الله عنه - ما ترك بيضاء ولا صفراء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يشتري بها خادمًا(٢) .

وقال رسول الله ﷺ في قتال علي للخوارج : « إنَّ منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله » فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر - فقال : « لا ، ولكنه خاصف النعل » . يعني عليًّا رضي الله عنه(٣) .

وهو الذي قاتل الخوارج وقتلوه ، وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « طوبى لمن قتلهم وقتلوه »(٤) .

---

(١) ما غلظ .

(٢) صحيح : أخرجه ابن حبان وأحمد والبزار والطبراني في الكبير ، والنسائي في الخصائص ، وابن عساكر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٢٤٩٦ .

(٣) صحيح : رواه أبو سعيد الخدري ، وأخرجه النسائي في خصائص علي ، وابن حبان والحاكم وأحمد وأبو يعلى ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن عساكر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٢٤٨٧ .

(٤) إسناده حسن : رواه ابن أبي عاصم في السنة عن عبد الله بن أبي أوفى وأخرجه أحمد.

« لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود »[١] .

« الخوارج كلاب النار »[٢] .

« لو يعلم الجيش الذي يصيبونهم ما قُضِي لهم على لسان نبيهم لاتكلوا عن العمل »[٣] .

« إن في قتلهم أجرًا عظيمًا عند الله لمن قتلهم »[٤] .

وفي ليلة خيبر قال رسول الله ﷺ : « لأعطين الزاية غدًا رجلًا يحبه الله ورسوله »[٥] . فأعطاها لعلي ، وقتل عليّ مرحب فارس خيبر .

فرضي الله عمن قال له النبي ﷺ :« ألا يرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ »[٦] .

وكان أخًا لنبي الهدى	وخُصّ بذاك فلا يُكْذَبِ
وفي ليلة الغار وافى النبيَ	عشاءً إلى الفلق الأشهبِ
وباتَ دُوَيْنَهُ في الفراش	مُوَطِّنَ نفسٍ على الأصعبِ
وعمرو بن وُدّ وأحزابه	سقاهم حِسا الموت في يثربِ
وسل عنه خيبر ذات الحصونِ	تُخَبِّرْكَ عنه وعَنْ مَرْحَبِ
وسِبْطاهُ جدهما أحمـدُ	فَبَخْ بَخْ[٧] بجدهما والأَبِ

لطيفة :

في قوله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا** ﴾ [الإنسان : ٨]

---

(١) صحيح . وقد ورد في الصحيح أيضًا « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » .

(٢) صحيح : رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن ابن أبي أوفى ، وأحمد والحاكم عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٣) صحيح : أخرجه النسائي في خصائص علي ، ورواه عبد الله بن أحمد في السنة .

(٤) صحيح : أخرجه ابن ماجة وأحمد والترمذي عن ابن مسعود .

(٥) صحيح : أخرجه مسلم عن سعد وأبي هريرة ، والترمذي ، والطبراني .

(٦) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص، والترمذي، وأحمد وأبو يعلى، والبزار والطبراني .

(٧) كلمة تقال عند الإعجاب والفخر .

على قول من قال : إنها نزلت في علي وفاطمة[١] .

قال ابن الجوزي :

وعجبًا ذكر في هذه الآيات نعيم الجنات من الملبوس والمشروبات والمطعومات ، والأرائك والقصور والعيون الجاريات ، ولم يذكر النساء وهُنّ غاية اللذات ، احتراما لفاطمة أشرف البنات ، ومَنْ يصف فاطمة الزهراء لا يذكر حورًا ﴿ **إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا** ﴾[٢] [الإنسان : ٢٢] .

قال الألوسي في روح المعاني :

ومن اللطائف على القول بنزولها فيهم أنه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين ، وإنما صرّح عز وجل بولدان مخلدين ، رعاية لحرمة البتول ، وقرة عين الرسول[٣] ﷺ.

إِلَامَ أُلامُ وحتّى متى أعاقب في حب هذا الفتى

وهل زُوّجت غيره فاطم وفي غيره هلْ أتى هلْ أتى

○ جعفر الطيّار ○

لجعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه – قصة يظهر فيها بوضوح كيف أن الجزاء من جنس العمل .

بعث رسول الله ﷺ سرية إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثمان ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال ﷺ : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » .

فمضوا إلى أرض البلقاء من أرض الشام حتى نزلوا معانا من أرض الشام، وبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة.

ثلاثة آلاف من الأبطال والشجعان ، من حملة القرآن ، أمام عبدة الصلبان ، عليهم لعائن الرحمن ، في ذلك الزمان ، وفي كل أوان .

فالتقى الناس **فاقتتلوا**، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى

---

(١) حكم بالوضع الترمذي وابن الجوزي وأطال في إبطالها القرطبي ورد متعقبًا الألوسي وغيره .

(٢) التبصرة ١ / ٤٥٤ . (٣) الألوسى ٢٩/ ٣٠ ص١٥٧، ١٥٨.

شاط في رماح القوم ، ثم أخذها جعفر فقاتل القوم حتى قتل .

اقتحم جعفر عن فرس له شقراء ، ثم عقرها ؛ فكان جعفر أول المسلمين عَقَرَ في الإسلام[١] ، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها
والروم رومٌ قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إنْ لاقيتها ضرابها

قال ابن هشام :

وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفرًا أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء .

روى البخاري عن عبد الله بن عمر : كنت فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا في جسده بضعًا وتسعين من ضربة ورمية . تفرّد به البخاري .

ومن أفراد البخاري عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر بن أبي طالب يومئذ وهو قتيل ، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره[٢] .

مما يشهد لكون الجزاء من جنس العمل ، ويشهد أيضًا لما ذكره ابن هشام من قطع يمينه وهي ممسكة اللواء ثم شماله – ما رواه البخاري عن عامر قال : كان

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٣ / ٢٤٤) استدل من جواز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو ، كما يقول أبو حنيفة في الأغنام إذا لم تتبع في السير ويخشى من لحوق العدو وانتفاعهم بها أنها تذبح وتحرق ليحال بينهم والله أعلم .
قال السهيلي : ولم ينكر : أحد على جعفر فدل على جوازه إلا إذا أمن أخذ العدو له ، ولا يدخل في ذلك في النهي عن قتل الحيوان عبثًا .

(٢) وجه الجمع بين هذه الرواية والتي قبلها أن ابن عمر اطلع على هذا العدد ، وغيره اطلع على أكثر من ذلك ، وأن هذه في قبله أصيبها قبل أن يقتل ، فلما صرع إلى الأرض ضربوه أيضًا ضربات في ظهره ، فعد ابن عمر ما كان في قبله وهو في وجوه الأعداء قبل أن يقتل رضي الله عنه .

ابن عمر إذا حيّى ابن جعفر قال : السلام عليك يابن ذي الجناحين .

قال ابن كثير :

لأن الله تعالى عوّضه عن يديه بجناحيه في الجنة[١] .

عن ابن عباس– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكىء على سريره»[٢].

وعن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفر ابن أبي طالب مَلَكًا يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين »[٣] .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جعفر بن أبي طالب مَلَكًا في الجنة ، مضرجة قوادمه بالدماء ، يطير في الجنة »[٤] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مرَّ بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة ، وهو مخضّب الجناحين بالدم ، أبيض الفؤاد »[٥] .

وقال عبد الله بن جعفر قال لي رسول الله ﷺ : « هنيئًا لك !! أبوك يطير مع الملائكة في السماء »[٦] .

وعن ابن عباس مرفوعًا : « إن جعفرًا يطير مع جبريل وميكائيل ، له جناحان عوّضه الله من يديه »[٧].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٢٥٦) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك وابن عدي عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٥٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٢٢٦ .

(٣) صحيح : رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٤٥٩ .

(٤) أخرجه الحاكم عن ابن عباس وصححه ، وكذلك هو في الاستيعاب ، وقال الحافظ في الفتح أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس ، وإسناده جيد .

(٥) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٩٦) : أخرجه الحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم .

(٦) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٩٦) : أخرجه الطبراني بإسناد حسن .

(٧) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٩٦) : وإسناده هذه جيد .

والجزاء من جنس العمل .

يقول حسان يبكي جعفرًا :

فلا يبعدنَّ الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهمْ ذو الجناحين جعفرُ

وزيدٌ وعبد الله حين تتابعوا ... جميعًا وأسباب المنية تخطرُ

غداة مضوا بالمؤمنين يقودهمْ ... إلى الموت ميمون النقيبة أزهرُ

أغرّ كضوء البدرِ من آل هاشمٍ ... أبيٌّ إذا سيم الظلامة مجسرُ

فطاعنَ حتّى مال غير موسّدٍ ... بمعتركٍ فيه القنا متكسّرٌ

فصار مع المستشهدين ثوابه ... جنان وملتف الحدائق أخضرُ

وكنا نرى في جعفرٍ من محمد ... وفاءً وأمرًا حازمًا حين يأمرُ

وما زال في الإسلام من آل هاشمٍ ... دعائم عزّ لا يزلن ومفخرُ

○ زيد بن حارثة ○

الأمير الشهيد النبوي المسمى في سورة الأحزاب ، أبو أسامة المحمدي ، سيد الموالي وأسبقهم إلى الإسلام ، وحب رسول الله ﷺ وأبو حِبّه ، وما أحب رسول الله ﷺ إلا طيبًا ، ولم يسم الله تعالى في كتابه صحابيًا باسمه إلا زيد بن حارثة .

مَنْ ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه ، ومن آثر رسول الله ﷺ على أمه وأبيه ، آثره الله وذكر اسمه فَحُقّ له أن يفتخر ويتيه .

فيا صاحبي قف بي مع الحق وقفةً ... أموت بها وجدًا وأحيا بها وجدًا

وقُلْ لملوكِ الأرض تجهد جهدها ... فذا الملك ملك لا يباع ولا يُهدىٰ

سُبِيَ وهو غلام صغير نحو الثامنة من عمره ، وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة تبتغي زيارة قومها بني مَعْن ، وكانت تصحب معها غلامها زيد بن حارثة ، فما كادت تحل في ديار قومها حتى أغارت عليهم خيل لبني الْقَيْن فأخذوا المال ، واستاقوا الإبل ، وسبوا الذراري وكان في جملتهم زيد ، وبيع في سوق عكاظ ، واشتراه حكيم بن حزام ، وأهداه لعمته خديجة ، وأهدته- رضي الله عنها - لرسول الله ﷺ وكان أبوه يتحراه في كل أرض ، ويسأل عنه كل ركب ، ويصوغ حنينه إليه شعرا حزينًا تتفطر له الأكباد حيث يقول :

بكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ ما فعلْ ... أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل؟
فوالله ما أدري ، وإني لسائلٌ ... أغالَكَ بعدي السهلُ أم غالك الجبلْ؟
تذكرنيه الشمسُ عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفلْ
سأعمل نصّ العيسِ في الأرض جاهدًا ... ولا أسأم التَّطوافَ أو تسأم الإبلْ
حياتي أو تأتي عليّ منيتي ... فكل امرىءٍ فان وإن غرّه الأجلْ

ولمّا علم أهله بعد طول بحث أنه عند محمد بن عبد الله - ﷺ - أتوْه وقالوا : هذا ابننا فردّه علينا . فقال : « أعرض عليه ، فإن اختاركم فخذوا بيده » . فبعث إلى زيد وقال : « هل تعرف هؤلاء ؟ » . قال : نعم . هذا أبي ، وهذا أخي ، وهذا عمي ، فقال له النبي ﷺ : « فأي صاحب كنت لك ؟ » . فبكى وقال : لم سألتني عن ذلك ؟ . قال : « أخيرك ، فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق ، وإنْ أردت أن تقيم فأنا مَنْ قد عرفت » فقال : ما أختار عليك أحدًا . فقال له أبوه : ويحك يا زيد !! أتختار العبودية على أبيك وعمك . فقال : إني رأيت من هذا الرجل شيئًا ، وما أنا بالذي يفارقه أبدًا . إي والله ، العبودية عند محمدٍ أحب إليّ من أن أكون عندكم .

فخرج به الرسول ﷺ إلى الحِجْر على ملأٍ من قريش وقال: « يا معشر قريش، اشهدوا أن هذا ابني يرثني وأرثه». فكان يُدعى زيد بن محمد، فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أول من آمن به ، وهل فوق هذه الأولية أوليّة يتنافس فيها المتنافسون.

وبعد البعثة أيضًا أراد أخوه منه أن يلحق بأهله فأبى .

قال جبلة بن حارثة : قدمت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، ابعث معي أخي زيدًا ، قال : « هو ذا ، فإنِ انطلق لم أمنعه » فقال زيد : لا والله ، لا أختار عليك أحدًا أبدًا ، قال : فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي[1] .

عن سالم عن أبيه قال : ما كنّا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ،

---

(١) أخرجه الترمذي عن جبلة بن حارثة وحسنه ، وأخرجه الحاكم (٣/٢١٤) وصححه ووافقه الذهبي ، وذكره الحافظ في الإصابة في ترجمة جبلة بن الحارث ، وزاد نسبته إلى أبي يعلى انظر سير أعلام النبلاء (١ / ٢٥) .

فنزلت : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ [الأحزاب : ٥][(١)] .

ويلوح الجزاء من جنس العمل ، وإن زاد زيادة تقوم لها الدنيا ، فلما أحب زيد النبي ﷺ ، وآثره على أمه وأبيه ، فقد أحبه الرسول الكريم ﷺ ، وخلطه بأهله وبنيه ، وكان أحبَّ الناس إليه ، عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « يا زيد ، أنت مولاي ومني وإليّ وأحبّ القوم إليّ »[(٢)].

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ أمَّر أسامة على قوم ، فطعن الناس في إمارته ، فقال : « إن تطعنوا في إمارته ، فقد طعنتم في إمارة أبيه ، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة ، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ ، وإنّ ابنه هذا لأحبّ الناس إليّ بعده »[(٣)] .

وفيه عن سالم عن ابن عمر: «وإن كان [لأحب الناس كلهم إليّ] قال سالم : ما سمعت أبي يحدث بهذا الحديث قط إلّا قال : والله ما حاشا فاطمة[(٤)].

وعن عائشة قالت : ما بعث رسول الله ﷺ زيدًا في جيش قط إلا أمّره عليهم ، ولو بقي بعده استخلفه[(٥)] .

قال ابن عمر : فرض عمر لأسامة بن زيد أكثر مما فرض لي ، فكلمته في ذلك فقال : إنه كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ منك ، وإن أباه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك[(٦)] .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والبيهقي .

(٢) أخرجه أحمد وابن سعد ورجاله ثقات ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وحسنه الحافظ في الإصابة (٤ / ٥٠) .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي .

(٤) رجاله ثقات .

(٥) أحمد وابن سعد في الطبقات وابن أبي شيبة والنسائي بإسناد حسن . وقال ابن كثير : إسناده جيد . قوي على شرط الصحيح (٣ / ٢٥٤) من البداية .

(٦) ذكره الحافظ في الإصابة وقال : صحيح .

قال القرطبي[(١)]:

قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي - رضي الله عنه - كان يقال : زيد بن محمد حتى نزل : ﴿ **ادعوهم لآبائهم** ﴾ فقال : أنا زيد بن حارثة - وحُرّم عليه أن يقول : أنا زيد بن محمد ، فلما نزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر ، وعُلِمَ وحشته من ذلك ؛ شرفه بخصيصة لم يكن يخصّ بها أحدًا من أصحاب النبي ﷺ وهي أنه سمّاه في القرآن ، فقال تعالى : ﴿ **فلما قضى زيدٌ منها وطرًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٧] يعني : من زينب ، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم ، حتى صار قرآنا يُتلى في المحاريب ، نوّه به غاية التنويه ، فكان في هذا تأنيس له ، وعِوَضٌ من الفخر بأبوّة محمد ﷺ له ، ألا ترى إلى قول أبيّ بن كعب حين قال له النبي ﷺ : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا » . فبكى وقال : أَوَ ذُكرتُ هنالك؟، وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره : فكيف بمن صار اسمه قرآنا يُتلَى مُخلدًا لا يبيد ، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن وأهل الجنة كذلك أبدًا ، لا يزال على ألسنة المؤمنين كما لم يزل مذكورًا على الخصوص عند رب العالمين ، إذِ القرآن كلام الله القديم وهو باقٍ لا يبيد ، فاسم زيد في الصحف المكرمة ، المرفوعة المطهرة ، تذكره في التلاوة السفرة الكرام البررة ، وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء ، ولزيد بن حارثة تعويضًا من الله تعالى له مما نزع عنه ، وزاد في الآية أنه قال : ﴿ **وإذ تقول للذي أنعم الله عليه** ﴾ [الأحزاب : ٣٧] أي بالإيمان فدل على أنه من أهل الجنة ، علم ذلك قبل أن يموت ، وهذه فضيلة أخرى عن بريدة أن رسول الله ﷺ ، قال : « **دخلتُ الجنة فاستقبلتني جارية شابة فقلت : لمن أنت ؟ قالت: أنا لزيد بن حارثة** »[(٢)] .

---

(١) تفسير القرطبي (٨ / ٢٧٦) .

(٢) إسناده حسن : ذكره صاحب الكنز ، ونسبه إلى الروياني والضياء في المختارة ، وابن عساكر ، وقال الذهبي : إسناده حسن ، انظر سير أعلام النبلاء (١ / ٢٣٠) .

○ مناقـب الأنصـار ○

الإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا ، وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرًا ، وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديمًا وحديثًا .

الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ حين طردته القبائل وحاربه قومه ، آووه وبايعوه حين كان يأتي الناس يدعوهم إلى الله ، فتقول القبائل : احذر غلام قريش ، لا يفتنك ، فقالت الأنصار : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟ قال رسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية للأنصار : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني ، فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » يقول جابر : فقمنا إليه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة فقال : رويدًا يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة ، وقتل خياركم ، وتعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله قالوا : أبط عنا يا سعد ، فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدًا .

وفي رواية أخرى :

قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء ابن معرور بيده وقال : نعم ! فوالذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعْنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، ورثناها كابرًا عن كابر . فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهَيْثَم بن التَّيهَان، فقال: يارسول الله ،

إن بيننا وبين الرجال حبالًا ، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم» .

وفي رواية أخرى :

قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكة الأموال ، وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف .

أخرج البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ دعا الأنصار أن يُقطِع لهم البحرين . فقالوا : لا ، إلّا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقوني ؛ فإنه سيصيبكم بعدي أثرة»[(١)] .

يقول ابن القيم : الأنصار هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله : ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ [الحشر : ٩] .

فتأمل سر التقدير ، حيث قدر الحكيم الخبير - سبحانه - استئثار الناس على الأنصار بالدنيا - وهم أهل الإيثار - ليجازيهم على إيثارهم إخوانَهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس . فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ، ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم[(٢)] .

---

(١) البخاري - كتاب مناقب الأنصار .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٩٢ - ٢٩٣) .

وكان جزاؤهم في الدنيا عند رسول الله ﷺ من جنس عملهم . فإنه بعد فتح مكة رجع رسول الله ﷺ مع الأنصار إلى المدينة ، قال ﷺ للأنصار : « أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ لو أن الناس سلكوا واديًا أو شِعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم » . فعلا نحيب الأنصار وبكاؤهم ، وقالوا : رضينا برسول الله حظًّا ونصيبًا ، يقول رسول الله ﷺ : « أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا؛ لسلكت وادي الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار[١]، والناس دثار[٢]، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا ، حتى تلقوني على الحوض »[٣].

وقال ﷺ : « لكل نبي تركة وضيعة[٤]، وإن تركتي وضيعتي الأنصار ، فاحفظوني فيهم »[٥] .

وقال ﷺ : « الأنصار كرشي وعيبتي[٦] ... »[٧] .

والجزاء من جنس العمل .

○ أبو أيوب الأنصاري ○

السيد الكبير خالد بن زيد الخزرجي النجاري البدري، الذي خصّه رسول الله ﷺ بالنزول في بيته إلى أن بُنيت له حجرة أم المؤمنين سودة وبُني المسجد الشريف ، وكان نزوله ﷺ في بيت أبي أيوب منقبة عظيمة لأبي أيوب خاصّة ولبني النجار عامة .

---

(١) ما كان على الجسد من الثياب . (٢) اللباس الذي يكون على الثياب .
(٣) رواه البخاري وأحمد . (٤) العيال .
(٥) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس ، والنسائي عن أسيد بن حضير .
(٦) بطانته وموضع سره .
(٧) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد .

وقد ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفي كل دور الأنصار خير » . وقد رفع الله في الخافقين ذكره ، وأعلى في الأنام قدره ، حين اختار بيته دون بيوت المسلمين جميعًا ؛ لينزل فيه النبي الكريم ﷺ لمّا حلّ في المدينة مهاجرًا وحسبه بذلك فخرًا .

ولنزول الرسول ﷺ في بيت أبي أيوب قصة يحلو تردادها ، ويلذّ تكرارها،ذلك أن النبي ﷺ حين بلغ المدينة تلقته أفئدة أهلها بأكرم ما يُتلقى به وافد ، وتطلّعت إليه عيونهم تبثه شوق الحبيب إلى حبيبه ، وفتحوا له قلوبهم ليحلَّ منها في السويداء ، وأشرعوا له أبواب بيوتهم لينزل فيها أعزّ منزل ، وكانت الأنصار قد اجتمعوا فمشوا حول ناقته ، لا يزال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة ؛ شُحًّا على كرامة رسول الله ﷺ ، وتعظيمًا له ، وكُلّما مرّ بدار من دور الأنصار دَعَوْه إلى المنزل ، وكانوا يعترضون الناقة سيدًا إثر سيِّد :

عتبان بن مالك ، وعبّاس بن عبادة في رجال من بني سالم : يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدّة والمنعة، فقال ﷺ: «خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة».

فلما وازت دار بني بياضة : تلقّاه زياد بن لبيد ، وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة ، فقالوا : يا رسول الله هَلُمّ إلى العدد والعُدّة والمنعة ، قال : « خلّوا سبيلها ، فإنها مأمورة » وكذا الأمر دار بني ساعدة وسيدهم سعد ابن عبادة ، ودار بني الحارث بن الخزرج وسيدهم سعد بن الربيع، ودار عدي ابن النجّار وسيدهم سليط بن قيس ... حتى أتت دار أبي أيوب فقال الرسول ﷺ : « دعوها ، فإنها مأمورة ، فإنما أنزلُ حيث أنزلني الله » . فلما انتهت إلى دار أبي أيوب بركت به على الباب .

قال ابن إسحٰق : لمّا بركت الناقة برسول الله ﷺ لم ينزل عنها حتى وثبت ، فسارت غير بعيد ، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به ،

ثم التفتت خلفها ، فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تحلحلت ورزمت[١] ، ووضعت جرانها[٢] ، فنزل عنها رسول الله ﷺ فاحتمل أبو أيوب رحله فوضع في بيته[٣] .

حمل رحل النبي ﷺ وكأنما يحمل كنوز الدنيا كلها .

وروى البيهقي عن أبي أيوب أن رسول الله ﷺ نزل عليه ، فنزل في السفل ، وأبو أيوب في العلو ، فانتبه أبو أيوب فقال : نمشي فوق رسول الله ﷺ ، فتنحوْا فباتوا في جانب ، ثم قال للنبي ﷺ - يعني في ذلك - فقال : « السفل أرفق بنا » ، فقال : لا أعلو سقيفة أنت تحتها ، فتحول رسول الله ﷺ إلى العلو .

وانظر - رحمك الله - إلى أدب أبي أيوب ، وقوله : لرسول الله ﷺ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إني أكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظهر أنت فكن في العلو ، وننزل نحن فنكون في السفل .

أيكون رسول الله ﷺ أسفل ونحن أعلى منه ؛ أنمشي فوق رسول الله ﷺ ؟! أنصير بين النبي والوحي إنا إذًا لهالكون .

وانْحازا إلى جانب العِلِّية الذي لا يقع فوق رسول الله ﷺ ، والتزماه لا يبرحانه هو وزوجه ، إلا ماشييْن على الأطراف ، متباعدين عن الوسط ، فلما أصبح أبو أيوب قال للنبي ﷺ : والله ما أغمض لنا جفن في هذه الليلة . لا أنا ولا أم أيوب . فقال النبي ﷺ : « وممَ ذاك يا أبا أيوب ؟ » . قال : ذكرت أني على ظهر بيت أنت تحته ، ثم إني غدوت بينك وبين الوحي .

وعن أبي أيوب أن رسول الله ﷺ نزل في بيتنا الأسفل ، وكنت في

---

(١) أي بركت .

(٢) جرن البعير : برك ووضع أثقاله .

(٣) البداية والنهاية (٣ / ١٩٧) .

الغرفة ، فأهريق ماء في الغرفة ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا نتتبع الماء ، ونزلت فقلت : يا رسول الله ، لا ينبغي أن نكون فوقك ، انتقل إلى الغرفة ، فأمر بمتاعه فنُقل ، ومتاعه قليل . قلت : يا رسول الله : كنت ترسل بالطعام فأنظر ، فإذا رأيت أثر أصابعك وضعت فيه يدي[1] .

وعند ابن إسحٰق عن أبي أيوب : لقد انكسر حبّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء ، تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه ، وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه فإذا ردّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع أصابعه ، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة .

فهل كان جزاء أبي أيوب من جنس عمله ؟

عن حبيب بن أبي ثابت أن أبا أيوب قدم على ابن عباس البصرة ، ففرغ له بيته ، وقال : لأصنعن بك كما صنعت برسول الله ﷺ ، كم عليك ؟ قال : عشرون ألفًا . فأعطاه أربعين ألفًا وعشرين مملوكًا ومتاع البيت[2] .

وعند ابن كثير : لما قدم أبو أيوب البصرة ، وكان ابن عباس نائبًا عليها من جهة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فخرج له ابن عباس عن داره حتى أنزله فيها ، كما أنزل رسول الله ﷺ في داره ، وملّكه كل ما أغلق عليه بابها ، ولما أراد الانصراف أعطاه ابن عباس عشرين ألفًا وأربعين عبدًا[3] .

---

(١) إسناده صحيح : رواه أحمد والطبراني ، ونسبه الحافظ في الإصابة إلى أبي بكر بن أبي شيبة وابن أبي عاصم والحاكم ، وقال : حديث على شرط مسلم . وأقره الذهبي ، وأخرج مسلم نحوه .

(٢) الطبراني ورجاله ثقات ، والحاكم (٣ / ٤٦١ ، ٤٦٢) وصححه ، ووافقه الذهبي ، انظر تحقيق سير أعلام النبلاء (٢ / ٤١٠) ومجمع الزوائد وأسد الغابة .

(٣) البداية والنهاية (٣ / ٢٠٠ - ٢٠١) .

○ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ○

حمي الدبر(١)

هو جد عاصم بن عمر بن الخطاب . كان ممن أبلى وجالد يوم أحد .

وقد كان له مع سلافة بنت سعد شأن أي شأن ؛ فقد خرجت مشركة مع زوجها طلحة وأولادها الثلاثة: مسافع ، والجُلَّاس ، وكلاب إلى أحد ، وبعد أن اشتد وطيس الحرب رأتهم مُمَددين على سفوح أحد .

أمّا مسافع وكلاب ، فكانا قد فارقا الحياة ، وأما الجُلاس فوجدته وما تزال به بقية من دماء .

أكبّت سلافة على ابنها الذي يعالج سكرات الموت ، ووضعت رأسه في حجرها ، وجعلت تمسح الدماء عن جبينه وفمه ، وقد يبس الدمع في عينيها من هول الكارثة ، ثم أقبلت عليه وهي تقول : من صرعك يا بني ؟ فهمّ أن يجيبها ، لكن حشرجة الموت منعته ، فألحت عليه بالسؤال ، فقال : صرعني عاصم بن ثابت ، وصرع أخي مسافعًا و ... ثم لفظ آخر أنفاسه .

جن جنون سلافة بنت سعد ، وجعلت تعول وتنشج ، وأقسمت باللات والعزّى ألا تهدأ لها لوعة ، أو ترقأ لعينيها دمعة إلا إذا ثأرت لها قريش من عاصم ابن ثابت ، وأعطتها قحف رأسه لتشرب فيه الخمر(٢) .

قال أبو جعفر الطبري :

وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة ، وشاع خبر نذرها في قريش ، وجعل

---

(١) الدَّبر بالفتح : جماعة النحل والزنابير ، ولذلك كان يقال : حمي الدبر ، وكأن ذلك صار مثلًا .

(٢) صورة من حياة الصحابة ٢٢ – ٢٦ .

كل فتى من فتيان مكة يتمنى أن لو ظفر بعاصم بن ثابت وقدّم رأسه لسلافة ، حتى كان يوم الرجيع في السنة الرابعة من الهجرة ...

ولندع محمد بن إسحق - الذي قال فيه الشافعي : من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحق - يقصُّ علينا .

قدم على رسول الله ﷺ رهط من عضل والقارة ، فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلامًا ، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام ، فبعث رسول الله ﷺ نفرًا ستة من أصحابه وهم : مرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب .

قال ابن إسحٰق : وهو أمير القوم[1] ، وخالد بن البكير الليثي حليف بني عدي ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخو بني عمرو بن عوف ، وخبيب ابن عدي ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق .

قال ابن إسحٰق :

فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع - ماء لهذيل بناحية الحجاز من صدور الهدأة - غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلًا ، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلّا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم ، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم ، فقالوا لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم ، فأما مرثد وخالد بن البكير

(١) عند البخاري : بعث النبي ﷺ سرية عينًا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم : بنو لحيان ، فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلًا نزلوه ، فوجدوا فيه نوى تمرٍ تزودوه من المدينة ، فقالوا : هذا تمر يثرب فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم ، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد - مكان مرتفع - وجاء القوم فأحاطوا بهم ، فقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألّا نقتل منكم رجلًا . فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا رسولك . فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا .

وعاصم فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا ، وقال عاصم بن ثابت :

ما علتي وأنا جَلْدٌ نابلُ
والقوس فيها وترٌ عنابلُ
تزلّ عن صفحتها المعابلُ
الموت حقّ والحياة باطلُ
وكل ما حمّ الإلهُ نازلُ
بالمرء والمرءُ إليه آيلُ
إن لم أقاتلكم فأمي هابلُ

وقال عاصم أيضًا :

أبو سليمان وريش المقعدِ
وضالة مثل الجحيم الموقدِ
إذا النواحي افترشت لَمْ أُرْعدِ
ومجنأ من جلد ثورٍ أجردِ
ومؤمن بما عَلَى محمَّدِ

وقال أيضًا :

أبو سليمان ومثلي راما
وكان قومي معشرًا كراما

قال : ثم قاتل حتى قتل ، وقتل صاحباه[١] .

تذكر عاصم نذر سلافة الذي نذرته ، وجرّد سيفه وهو يقول : اللهم ، إني أحمي لدينك وأدافع عنه ، فاحم لحمي وعظمي ، ولا تظفر بهما أحدًا من أعداء الله[٢].

اللهم إني حميت دينك أول النهار فاحم جسدي آخره . قال ابن إسحق : فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ؛ ليبيعوه من سلافة بنت سعد ، فمنعته

---

(١) البداية والنهاية (٣/٦٤-٦٧). (٢) صور من حياة الصحابة (٦/٢٩).

الدَّبْر ، فلمّا حالت بينهم وبينه قالوا : دعوه حتى يمسي فيذهب عنه فنأخذه ، فبعث الله الوادي فاحتمل عاصمًا فذهب به . وكان عاصم قد أعطى عهدًا أن لا يَمَسّ مشرك ولا يَمَسّ مشركًا أبدًا تنجّسًا . فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه آن الدَّبْر منعته : يحفظ الله العبد المؤمن ، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ، ولا يمسّ مشركًا أبدًا في حياته ، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع في حياته[1].

والجزاء عند الله من جنس العمل .

يقول ابن سيد الناس في المقامات العلية في الكرامات الجلية : أعطى الله عهدًا أن لا يمسّ مشركًا .

وعناية الرحمن تعصم عاصمًا ... عَنْ أن يُنالَ براحةٍ أو أصبعِ
بالسيل بعد الدَّبْر من أعدائه ... في مصرعٍ أَكْرِمْ به من مصرعِ[2]

أخذه السيل بعيدًا بعيدًا ، ومضى به إلى حيث لا يعلمون .

وصان الله رأس عاصم الكريمة من أن يشرب في قحفها الخمر .

حمى دينه ، فحُمي جسده .

لم يمسّ مشركًا في دنياه ، فلم يمسه مشرك بعد موته .

يقول حسان بن ثابت يهجو بني لحيان :

إنْ سرّك الغدر صرفًا لا مزاج له ... فأتِ الرجيع فسل عن دار لحيانِ
قوم تواصوْا بأكل الجارِ بينهم ... فالكلب والقرد والإنسان مثلانِ
لو ينطق التّيسُ يومًا قام يخطبهم ... وكان ذا شرف فيهم وذا شان

وقال أيضًا :

لعمري لقد شانت هذيل بن مدرك ... أحاديثُ كانت في خبيب وعاصمِ
أحاديث لحيانٍ صُلُوا بقباحها ... ولحيان جرّامون شرَّ الجرائم
أناس همُ من قومهمْ في صميمهمْ ... بمنزلة الزمعان[3] دبر القوادمِ

---

(١) البداية والنهاية (٣ / ٦٧) .

(٢) المقامات العلية ص ٧٢ .

(٣) الرعاع أو سفلة القوم .

همُ غادرو يومِ الرجيع وأسلمت ... أمانتهم ذا عفة ومكارمِ
رسولَ رسولِ الله غدرًا ولم تكن ... هذيل توقّى منكرات المحارمِ
فسوف يرون النصر يومًا عليهمُ ... بقتل الذي تحميه دون الجرائمِ
أبابيلُ دَبْرٌ شمَّسٌ دون لحمه ... حمتْ لحم شهَّادٍ عظيم الملاحمِ
لعل هذيلًا أن يروا بمصابه ... مصارع قتلى أَوْ مقامًا لمأتمِ
ونوقع فيها وقعةً ذات صولةٍ ... يوافي بها الركبانُ أهلَ المواسمِ[(١)]

○ سعد بن معاذ سيد الأوس ○

السيد الشهيد الذي وفّى لله ، فوفّى الله له .. الذي اهتزّ لموته عرش الرحمن .

عن جابر - رضي الله عنه - قال : رمي سعدٌ يوم الأحزاب ، فقطعوا أكحله ، فحسمه النبي ﷺ بالنار ، فانتفخت يده ، فتركه فنزفه الدم ، فحسمه أخرى ، فانتفخت يده ، فلما رأى ذلك ، قال : اللهم ، لا تخرج نفسي حتى تقرَّ عيني من بني قريظة ، فاستمسك عِرْقُه ، فما قطرتْ منه قطرة حتى نزلوا على حكم سعد ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ ، فحكم أن يقتل رجالهم ، وتسبى نساؤهم وذراريهم ، قال : وكانوا أربعمائة ، فلما فرغ من قتلهم ، انفتق عرقه[(٢)].

رضي الله عن سعد كم وفّى لربه .

قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة لك ، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلّف منا رجلٌ واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، إنا لصبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعلَّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر على بركة الله .

قال ابن إسحق :

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ، ثم قال : « سيروا وأبشروا ،

---

(١) البداية والنهاية (٣/٧٠) .

(٢) إسناده حسن: رواه أحمد وابن سعد والدارمي.

فإن الله وعدني إحدى **الطائفتين**، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم »[١].

رمي سعد يوم الخندق بسهم قطع منه الأكحل .

قال ابن إسحق :

رماه ابن العَرقة ، فلما أصابه قال : خذها مني وأنا ابن العرقة ، فقال : عرّق الله وجهك في النار ، اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها ، فإنه لا قوم أحبّ إليّ مِنْ أن أجاهدهم فيك من قوم آذوْا نبيك وكذّبوه وأخرجوه ، اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فاجعلها لي شهادة ، ولا تمتني حتى تُقرَّ عيني من بني قريظة[٢] .

عن محمود بن لبيد قال : لما أصيب أكحل سعد فثقل ، حوّلوه عند امرأة يقال لها : رُفيدة تداوي الجرحى ، فكان النبي ﷺ إذا مرّ به يقول : كيف أمسيت ، وكيف أصبحت ؟ فيخبره حتى كانت الليلة التي نقله قومه فيها وثقل ، فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم ، وجاء رسول الله ﷺ ، فقيل : انطلقوا به ، فخرج وخرجنا معه ، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالنا ، وسقطت أرديتنا ، **فشكا** ذلك إليه أصحابه ، فقال : « إني أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة ، فتغسله كما غسّلت حنظلة » فانتهى إلى البيت ، وهو يُغَسّل ، وأمه تبكيه وتقول : ويل أم سعدٍ سعدًا ، حزامة وجدًّا . فقال : « كل باكية تكذب إلا أم سعد » ثم خرج به ، قال : يقول له القوم : ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخفّ علينا منه . قال : « ما يمنعه أن يخفّ ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قبل يومهم ، قد حملوه **معكم** »[٣] .

أمّا عن حكمه في بني قريظة ، فروى البخاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - إن أناسًا نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل إليه ، فجاء على حمار ، فلما بلغ قريبًا من المسجد قال النبي ﷺ : « قوموا إلى خيركم -

---

(١) البداية والنهاية (٣ / ٢٦١) .

(٢) رجاله ثقات ، وهو في سيرة ابن هشام ، وأخرجه أحمد بنحوه أطول من هذا .

(٣) إسناده حسن : أخرجه ابن سعد ، انظر تخريج سير أعلام النبلاء (١ / ٢٨٧) .

أو سيدكم - » فقال : « يا سعد ، إن هؤلاء نزلوا على حكمك ». قال : فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، قال : «حكمت بحكم الله أو بحكم الملك » .

دعا سعد بن معاذ ربه ألا يميته حتى يُقرَّ عينَه من بني قريظة قَبْل أن يحكم فيهم ، فلما حكم فيهم ، وأقرّ الله عينه أيّ قرار ، دعا ثانيًا بهذا الدعاء ، فجعلها الله له شهادة رضي الله عنه وأرضاه .

عن عبد الله بن شداد : دخل رسول الله ﷺ على سعد وهو يكبد نفسه، فقال : «**جزاك الله خيرًا من سيد قوم، فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزنك الله ما وعدك** »[1].

والجزاء من جنس العمل .

وقال رسول الله ﷺ عن سعد بن معاذ : « لقد حكم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات »[2] .

وعن البراء - رضي الله عنه - أهديت للنبي ﷺ حلة حرير ، فجعل أصحابه يمسونها ، ويعجبون من لينها ، فقال : « أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ خير منها وألين »[3] .

وعن جابر - رضي الله عنه - سمعت النبي ﷺ يقول : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ »[4] .

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : « اهتز العرش لموت سعد ابن معاذ »[4] .

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ورجاله ثقات .

(٢) إسناده حسن : أخرجه ابن سعد .

(٣) رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم وأحمد وأبو نعيم .

(٤) رواه البخاري ، عن جابر ، وأحمد وابن سعد . والحاكم عن أبي سعيد ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

قال النضر بن شميل – وهو إمام في اللغة – : اهتز : فرح ، كما يقوله الذهبي في سير أعلام النبلاء[١] .

وعن ابن عمر يرفعه : « اهتز العرش لحب لقاء الله سعدًا »[٢] .

من أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه ، طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشوق .

ونعاه جبريل إلى النبي ﷺ .

عن جابر قال : جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال : من هذا العبد الصالح الذي مات ؟ فُتِحَتْ له أبواب السماء ، وتحرّك له العرش . فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد . قال : فجلس على قبره ...[٣] الحديث .

وما اهتز عرش الله من موت هالك سمعنا به إلا لسعدٍ أبي عمرو

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « هذا العبد الصالح الذي تحرّك له العرش ، وفتحت أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك ... ولقد ضمّ ضمة ثم أفرج عنه »[٤] . يعني سعدًا .

عن أنس قال : لمّا حُملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون : ما أخفّ جنازَته . فقال النبي ﷺ : « إن الملائكة كانت تحمله »[٥] .

قال ابن حجر :

واهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه ، يُقال لكل من خرج بقدوم قادم عليه : اهتز له ، ومنه اهتزت الأرض بالنبات إذا اخضرّت وحسنت[٦] اهـ.

قال المناوي :

قال ابن القيم : كان سعد في الأنصار بمنزلة الصدِّيق في المهاجرين ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وخُتم له بالشهادة ، وآثر رضا الله ورسوله على رضا قومه وحلفائه ، ووافق حكمه حكم الله من فوق سبع سمٰوات ، ونعاه جبريل

---

(١) (١ / ٢٩٣) . (٢) رواه ابن سعد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .
(٣) إسناده صحيح: رواه النسائي وابن سعد. (٤) إسناده صحيح: رواه النسائي وابن سعد.
(٥) صححه الترمذي، انظر الفتح (١٥٥/٧). (٦) فتح الباري (٧ / ١٥٥) اهـ .

عليه السلام يوم موته ، فحق له أن يهتز العرش له[١] . وهذا متواتر .

قال الذهبي :

والعرش خلْق الله مسخر،إذا شاء أن يهتز اهتز بمشيئة الله ، وجعل فيه شعورًا لحب سعد ، كما جعل تعالى شعورًا في جبل أحد يحبه النبي ﷺ ، وقال تعالى: ﴿**يا جبال أوبي معه**﴾ [سبأ : ١٠] . وقال : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض**﴾[الإسراء: ٤٤]، ثم عمم فقال: ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾ [الإسراء: ٤٤] . وهذا حق[٢] .

يقول حسان بن ثابت يرثي سعد بن معاذ ، رضي الله عنه :

لقد سجمتْ[٣] من دمع عيني عبرةٌ وحقَّ لعيني أن تفيض على سعدِ
قتيل سوى في معرك فجعت به عيون ذواري الدمع دائمة الوجدِ
على ملة الرحمن وارث جنة مع الشهداء وفدها أكرم الوفدِ
فإن تكُ قد ودعتنا وتركتنا وأمسيت في غبراءَ مظلمة اللحدِ
فأنت الذي يا سعد أُبتَ بمشهدٍ كريمٍ وأثواب المكارم والمجدِ
بحكمك في حيّ قريظة بالذي قضى اللهُ فيهم ما قضيت على عمدِ
فوافق حكم الله حكمك فيهمُ ولم تعفُ إذ ذكِّرْتَ ما كان من عهدِ
فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى شروا هذه الدنيا بجناتها الخلدِ
فنعم مصيرُ الصادقين إذا دُعوا إلى الله يومًا للوجاهة والقصدِ[٤]

○ عبد الله بن حذافة السهمي ○

أحد السابقين ، هاجر إلى الحبشة ، ونفّذه النبي ﷺ رسولًا إلى كسرى ، وهو من البدريين .

انظر إلى صحابة رسول الله ﷺ ترَ العجب العجاب .

عن أبي رافع قال: وجه عمر جيشًا إلى الروم، فأسروا عبد الله بن حذافة،

---

(١) فيض القدير للمناوي (٣ / ٦٤) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١ / ٢٩٧) .
(٣) سالت .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (١٣٢/٣).

فذهبوا به إلى ملكهم ، فقالوا : إن هذا من أصحاب محمد ، فقال : هل لك أن تَتَنَصَّر وأعطيك نصف ملكي ؟. قال : لو أعطيتني جميع ما تملك ، وجميع ملك العرب ، ما رجعت عن دين محمد طرفةَ عين . قال : إذًا أقتلك . قال : أنت وذاك ، فأمر به فصلب . وقال للرماة : ارموا قريبًا من بدنه ، وهو يعرض عليه ويأبى ، فأنزله ودعا بقدر ، فصب فيها ماء حتى احترقت ، ودعا بأسيرين من المسلمين ، فأمر بأحدهما فألقي فيها ، وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ثم بكى ، فقيل للملك : إنه بكى . فظن أن قد جزع . فقال : ردُّوه . ما أبكاك ؟ قال : قلت : هي نفس واحدة تُلْقى الساعةَ فتذهب ، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تُلقَى في النار في الله .

فقال له الطاغية : هل لك أن تُقبل رأسي وأخلي عنك ؟ فقال له عبد الله : وعن جميع الأسارى ؟ قال : نعم ، فقبّل رأسه ، وقدم بالأسارى على عمر ، **فأخبره خبره فقال عمر : حُقٌّ على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة ، وأنا أبدأ . فقبل رأسه**[1] .

والجزاء من جنس العمل .

وعن مالك بن أنس : أن أهل قيسارية أسروا ابن حذافة ، فأمر به ملكهم ، فجرب بأشياء صبر عليها ، ثم جعلوا له في بيت معه الخمر ولحم الخنزير ثلاثًا لا يأكل ، فاطلعوا عليه ، فقال للملك : قد انثنى عنقه ، فإن أخرجته وإلا مات . فأخرجه ، وقال : ما منعك أن تأكل وتشرب ؟ قال : إن الضرورة قد أحلتها لي ، ولكن كرهتُ أن أشمتك بالإسلام . قال : فقبل رأسي وأخلي لك مائة أسير . قال : أما هذا فنعم ، فقبل رأسه فخلى له مائة وخلى سبيله .

وعند ابن عائذ: أطلق له ثلثمائة أسير ، وأجازه بثلاثين ألف دينار ، وثلاثين وصيفة ، وثلاثين وصيفًا[2] .

---

(١) ابن عساكر في تاريخه والحافظ في الإصابة ، وله شاهد من حديث ابن عباس ، وابن الأثير .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢ / ١٤ - ١٥) .

○ المستضعفون ○

قال تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطًا** ﴾ [الكهف : ٢٨] .

قال ابن كثير :

يقال : إنها نزلت في أشراف قريش ، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة ، فنهاه الله عن ذلك : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء[١] .

وفي مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : كنَّا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ! قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هُذيل وبلال ، ورجلان لست أسمِّيهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، **فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم ...﴾ الآية** . [الأنعام : ٥٢][٢] .

﴿ **اصبر نفسك** ﴾ لا تملَّ ولا تستعجل ﴿ **مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**﴾ [الكهف: ٢٨] فالله غايتهم، يتوجهون إليه بالغداة والعشي، لا يتحولون عنه ، ولا يبتغون إلا رضاه ، وما يبتغونه أجل وأعلى من كل ما يبتغيه طلاَّب الحياة .

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ١٤٨) .

(٢) انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري .

اصبر نفسك مع هؤلاء ، صاحبهم وجالسهم وعلّمهم ، ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تكون الدعوات ، فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها ؛ لأنها غالبة ، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع ، ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع ، وليتجروا بها في سوق الدعوات تشترى منهم وتباع ، إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له ، لا تبتغي جاهًا ولا متاعًا ولا انتفاعًا ، إنما تبتغي وجهه ، وترجو رضاه .

﴿**ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا**﴾ [الكهف: ٢٨] ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي يستمتع بها أصحاب الزينة ، فهذه زينة الحياة الدنيا ، لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالي الذي يتطلع إليه من يدعون إلى ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .

لقد جاء الإسلام ليسوي بين الرءوس أمام الله ، فلا تفاضل بينها . بمال ولا نسبٍ ولا جاه فهذه قيم زائفة ، وقيم زائلة ، إنما التفاضل بمكانها عند الله ، ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها وتجردها له ، وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والضلال[1] .

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس أعمالهم :

لما صبروا على ذكر الله ، أمر الله رسوله بالصبر معهم .

لما أرادوا وجه الله ، أمر الله نبيه بألا يرفع بصره عنهم .

﴿ **يريدون وجهه** ﴾ يشير إلى دوام دعائهم ربهم بالغداة والعشي ، وكون الإرادة على الدوام ، فآويناهم في دنيانا بعظائمنا ، وفي عقباهم بكرائمنا .

لما نظروا بقلوبهم إلى الله أمر الله رسوله ﷺ بألا يرفع بصره عنهم ، ولا يقلع عنهم نظره ، وهذا جزاء في **العاجل** .

---

(١) الظلال (٤ / ٢٢٦٨ - ٢٢٦٩) .

فجعل الله نظر الرسول اليوم إليهم ، ذريعة لهم إلى مولاهم ، وخلفا عما يفوتهم اليوم من نظرهم إليه .

لا تقطع اليوم عنهم نظرك ، فإنا لا نمنع غدًا نظرهم عنَّا .

هؤلاء النفر المتكبرون والسادة من كبراء قريش الذين ازدروا البدور الإيمانية ؛ لأن عليهم جبابا تفوح منها رائحة العرق ، لو علموا قدر من ازدروهم لطامنوا من كبريائهم ،**وخففوا** من غلوائهم ، وخفضوا من تلك الهامات المتشامخة ، أمام عمار الذي استأذن على النبي ﷺ ، فقال : « من هذا ؟ » قال : عمار . قال : « مرحبًا بالطّيب المطيّب »[١]. وقال فيه ﷺ : « ملىء إيمانًا إلى مشاشه » يعني عمارًا[٢] .

عن أنس مرفوعًا قال: «ثلاثة تشتاق إليهم الجنة: علي وسلمان وعمار»[٣].

وهو الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ﷺ ، كما جاء في البخاري ، وهو الذي ثبت على الإيمان لما أكرهه المشركون على النطق بكلمة الكفر، فنزلت فيه الآية: ﴿**إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ [النحل: ١٠٦].

○ بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ ○

عن قيس : اشترى أبو بكر بلالًا وهو مدفون في الحجارة بخمس أواقٍ ذهبًا ، فقالوا : لو أبيت إلا أوقية لبعناكه ، قال : لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته[٤].

عن ذرٍ، عن عبد الله: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار ، وأمه سمية ، وبلال ، وصهيب ، والمقداد . فأما النبي ﷺ وأبو بكر

---

(١) أخرجه الترمذي عن علي ، وإسناده قوي ، والحاكم في المستدرك وصححه ، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البزار من حديث عائشة ، وقال الحافظ في الفتح (٩٢/٧): وإسناده صحيح . والمشاش جمع مشاشة ، وهي رؤوس العظام اللينة .

(٣) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد. وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية . وقال الذهبي : إسناده قوي.سير (٣٥٣/١) .

منعهما الله بقومهما ، [وأما] سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس ، فما منهم أحد إلا وأتاهم على ما أرادوا إلا بلال ، فإنه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه فأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد[١] .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

لما هانت عليه نفسه في الله ، عظم عند الله وعند سادة المؤمنين .

فعن جابر بن عبد الله قال: كان عمر يقول: أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا؛ يعني بلالًا . وفي رواية : أبو بكر سيدنا أعتق بلالًا سيدنا [٢] .

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر : « يا بلال ، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام ، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة » ، قال : ما عملت عملًا أرجى عندي أني لم أتطهر طُهورًا في ساعة ليل أو نهار ، إلا صليت بذلك الطُهور ما كتب لي أن أصلي[٣]. قال البخاري : دف نعليك يعني : تحريك . وعند مسلم : « خشف » أي : الحركة الخفيفة . وعند أحمد والترمذي من حديث بريدة : « خشخشة » وهو بمعنى الحركة أيضًا[٤].

وفي رواية أخرى عند البخاري ومسلم : « حدثني بأرجي عمل عملته في الإسلام ، إني قد سمعت خشفة نعليك بين يدي في الجنة » . الخشفة : الحركة وزنًا ومعنًى ، وقال أبو عبيد : الخشفة: الصوت ليس بالشديد .

عن بريدة قال : أصبح رسول الله ﷺ ، فدعا بلالًا ، فقال : « بم سبقتني إلى الجنة ؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي ، إني دخلت الجنة

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ؛ والذهبي في سير أعلام النبلاء ، وإسناده حسن .

(٢) أخرجه البخاري ، وابن سعد ، وأبو نعيم ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وهو عند الطبراني .

(٣) البخاري ومسلم .

(٤) فتح الباري (٣/٤٢) .

البارحة ، فسمعت خشخشتك أمامي ، وأتيت على قصر من ذهب ، فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : لعمر » . فقال بلال : ما أذنت قط إلا صليت ركعتين ، وما أصابني حدث إلا توضأت ، ورأيت أن لله علي ركعتين أركعهما . فقال : « بهما »[١].

لما مشى بالأذان بين يدي النبي ﷺ ، فاتفق مثله في الجنة .

ولا يلزم من ذلك دخول بلال الجنة قبل النبي ﷺ لأنه في مقام التابع ، وكأنه أشار ﷺ إلى بقاء بلال على ما كان عليه حال حياته ، واستمراره على قرب منزلته ، وفيه منقبة عظيمة لبلال[٢] .

قال سعيد بن عبد العزيز : لما احتضر بلال قال :

غدًا نلقى الأحبه * محمدًا وحزبه

قال : تقول امرأته : واويلاه ، فقال : وافرحاه[٣] .

○ خُبيب بن عدي ○

لما أخذ بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيبًا أسيرًا ، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر - فلبث خبيب عندهم أسيرًا حتى أجمعوا على قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارس موسى يستحد بها ، فأعارته فدرج بنيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه ، فوجدته مجلسه في فخذه والموسى بيده ، قالت : ففزعت فزعة عرفها خبيب . فقال : أتخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك . **قالت** : والله ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، والله لقد وجدته يومًا يأكل قطفًا من عنب في يده وهو موثق بالحديد ، وما بمكة من ثمرة ، وكانت تقول : **إنه لرزق** رزقه الله **خبيبًا**[٤] ،

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي ، والطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٢) فتح الباري (٣ / ٤٣) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١ / ٣٥٩) .

(٤) **رواه البخاري رقم (٣٩٨٩) كتاب المغازي ، انظر الإصابة ترجمة معاوية .**

وعند ابن إسحٰق : وما أعلم في الأرض حبة عنب .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

فلما حبست قدمه عن السعي في الرزق ، سيق إليه الرزق سوقًا .

والجزاء من جنس العمل .

○ أبو الدحداح ○

عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « رب عَذْق مُذلل لابن الدحداحة في الجنة »[1] .

وعن جابر بن سمرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « كم من معلق لأبي الدحداح في الجنة »[2] .

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له**﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ ، قال : « نعم يا أبا الدحداح » ؛ قال : أرني يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي ، قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، **وأم الدحداح فيه وعيالها،** قال: فجاء أبو الدحداح فنادى : يا أم الدحداح . قالت: لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل[3].

وفي مفاتيح الغيب للفخر الرازي :

إن أبا الدحداح قال : يا رسول الله إن لي **حديقتين** ، **فإني تصدقت بإحداهما** ، فهل لي مثلاها في الجنة ؟ قال : «نعم» ، قال : وأم الدحداح معي ؟ قال : «نعم» ، قال : والصبية معي ؟ **قال: «نعم». فتصدق** بأفضل حديقتين ، وكانت تسمى الحنينة ، قال : فرجع أبو الدحداح إلى أهله ، وكانوا في الحديقة التي تصدق بها ، فقام على باب الحديقة وذكر ذلك لامرأته ، فقالت أم الدحداح:

---

(١) صحيح: رواه ابن سعد عن ابن مسعود، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٤٨٣.

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن جابر بن سمرة .

(٣) أخرجه ابن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٤٨٣ .

بارك الله فيما اشتريت فخرجوا منها وسلموها[١] .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

قال رسول الله ﷺ : « رب عذق مذلل لابن الدحداحة في الجنة » .

قال المناوي :

والعَذْق – بفتح العين وسكون الذال – النخلة بضبط المصنف ، وبالكسر العرجون بما فيه ، « مذلل » أي مسهل على من يجتني منه التمر ، مكافأة له على كونه تصدق بحائطه المشتمل على ستمائة نخلة لما سمع قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا** ﴾[٢] [البقرة : ٢٤٥] .

« وكم من عِذق » بكسر العين غصن من نخلة ، وأما بضمها فالنخلة بكمالها .

قال المناوي :

لأبي الدحداح جزاءً له على جبره لخاطر اليتيم الذي خاصمه أبو لبابة في نخلة فبكى ، فاشتراها أبو الدحداح من أبي لبابة بحديقة ، فأعطاها اليتيم ،**فبإيثاره** الباقي على الفاني جوزي بتكثير النخل في الجنة فوق ما لأمثاله ، والجزاء من جنس العمل[٣] اهـ.

وقال القرطبي :

قال زيد بن أسلم: لما نزلت: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا**﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقال أبو الدحداح : فداك أبي وأمي يا رسول الله ، إن الله يستقرضنا وهو غني عن القرض . قال : « نعم ، يريد أن يدخلكم الجنة » . قال : فإني أقرضت ربي قرضًا يضمن لي به ولصبيتي الدحداحة معي الجنة ، قال : « نعم » . قال : ناولني يديك . فناوله رسول الله ﷺ يده ، فقال : إن لي حديقتين : إحداهما بالسافلة ، والأخرى بالعالية ، والله لا أملك غيرهما ، قد جعلتهما قرضًا لله تعالى . قال رسول الله ﷺ : « اجعل إحداهما لله ، والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك » . قال : فأشهدك يا رسول الله أني قد جعلت خيرهما لله تعالى ، وهو حائط فيه

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٣ / ٤٧٩) .

(٢) فيض القدير للمناوي (٤/١٦).

(٣) فيض القدير للمناوي (٥/٤٩) .

ستمائة نخلة ، قال : « إذًا يجزيك الله به الجنة » . فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أمّ الدحداح ، وهي مع صبيانها في الحديقة ، تدور تحت النخل فأنشأ يقول :

هداكِ ربي سبلَ الرشادِ   إلى سبيل الخير والسدادِ
بيني من الحائط بالودِادِ   فقد مضى قرضًا إلى التنادِ
أقرضته الله على اعتمادي   بالطوع لا منٍّ ولا ارتدادِ
إلا رجاء الضِّعف في المعادِ   فارْتحلي بالنفس والأولادِ
والبرُّ لا شك فخيرُ زادِ   قدمه المرء إلى المعَادِ

قالت أم الدحداح : ربح بيعك ، بارك الله لك فيما اشتريت ، وأجابته أم الدحداح ، وأنشأت تقول :

بَشّركَ الله بخيرٍ وفــرحْ   مثلك أدى ما لديه ونصحْ
قد متّع الله عيالي ومنحْ   بالعجوة السوداء والزّهو والبلحْ
والعبد يسعى وله ما قد كدحْ   طول الليالي وعليه ما اجترحْ

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها ، تُخرِج ما في أفواههم ، وتخرج ما في أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر ، فقال النبي ﷺ : « كم من عذق ردَاح ودار فياح لأبي الدحداح »[1] .

تُرى أي نخيلٍ ظفر به أبو الدحداح !! ، إنه نخيل الجنة ، مغروس في تربة من مسك وزعفران ، من فضة بيضاء كأنها المرآة ، يسقى بخمرٍ ولبن وعسل مصفى وماء غير آسن ، ساقه من الذهب ، ما من شجرة في الجنة إلا وساقها من خالص الذهب ، سعفه ثياب أهل الجنة ، ثمره أشدُّ بياضًا من الثلج ، ألين من الزبد ، أحلى من العسل ، ليس فيه العجم .

يا نخل تحت ظلك الحبيب   ياليت لي في الظل من نصيب

---

(١) تفسير القرطبي (٢ / ١٠٤٦ - ١٠٤٧) .

○ السيدة خديجة بنت خويلد ○
رضي الله عنها

سيدة نساء العالمين في زمانها ، أم القاسم ، أم أولاد رسول الله ﷺ ، وأول من آمن به وصدّقه قبل كل أحد ، وثبتتْ جأشه ، ومضت به إلى ابن عمها ورقة . قال الزبير بن بكار : كانت خديجة تدعى في الجاهلية : الطاهرة .

ومناقبها جمة ، وهي ممّن كمل من النساء ، وكان النبي ﷺ يثني عليها ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين ، بحيث إن عائشة رضي الله عنها كانت تقول : ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة ؛ من كثرة ذكر النبي ﷺ **لها** .

قال ابن الأثير :

خديجة أوَّل خلق الله أسلم بإجماع المسلمين ، لما بعث رسول الله ﷺ وأتاه جبريل ، وقرأ عليه : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾[1] تقول السيدة عائشة : فرجع بها ترجف بوادره[2]، حتى دخل على خديجة. قال: «زملوني». فزمّلوه حتى ذهب عنه الرّوْع . فقال : « ما لي يا خديجة ؟ » . وأخبرها الخبر وقال : « لقد خشيت على نفسي » . فقالت له : كلَّا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتعين على نوائب الحق ، وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد ، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الخطّ العربي ، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخًا قد عمي ، فقالت : اسمع من ابن أخيك ما يقول . فقال : يا بن أخي ، ما ترى ؟ فأخبره ، فقال : هذا الناموس الذي أنزل على

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) جمع بادرة ، وهي لحمة بين المنكب والعنق ، وهي رواية البخاري في التفسير والتعبير ، ورواه في بدء الوحي بلفظ : فؤاده .

موسى[١] .

ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج امرأة قبلها ، وجاءه منها عدة أولاد ، ولم يتزوج عليها قط ولا تسرّى إلى أن قضت نحبها ، فوجد لفقدها ، فإنها كانت نعم القرين ، وكانت تنفق عليه من مالها ، ويتجر هو ﷺ لها .

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثنائه عليها واستغفاره لها ، فذكرها يومًا ، فحملتني الغيرة ، فقلت : لقد عوّضك الله من كبيرة السن ! قالت : فرأيته غضب غضبًا ، أُسقطتُ في خلدي . وقلت في نفسي : اللهم ، إن أذهبت غضب رسولك عني لم أعد أذكرها بسوء . فلما رأى النبي ﷺ ما لقيت . قال : « كيف قلت ؟ والله لقد آمنت بي إذ كذّبني الناس ، وآوتني إذ رفضني الناس ، ورزقت منها الولد ، وحُرمتموه مني » ، **قالت : فغدا وراح علي بها شهرًا**[٢] .

عن عائشة: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة؛ مما كنت أسمع من ذكر رسول الله ﷺ لها ، وما تزوّجني إلّا بعد موتها بثلاث سنين ، وقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب[٣] .

قال أبو هريرة : أتى جبريل النبي ﷺ فقال : هذه خديجة أتتك ، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنّي ، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب[٤] .

قال علي بن أبي طالب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائها خديجة بنت خويلد ، وخير نسائها مريم بنت عمران »[٥].

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) إسناده حسن : نسبه الحافظ ابن حجر في الإصابة (١٢/٢١٧-٢١٨) إلى كتاب : الذرية الطاهرة ، للدولابي .

(٣) رواه البخاري ومسلم . وأراد بالبيت : القصر،يقال : هذا بيت فلان ؛ أي قصره .

(٤) متفق عليه . (٥) رواه البخاري .

قال القرطبي :

الضمير عائد على غير مذكور ، لكنه يفسره الحال والمشاهدة . يعني به الدنيا ، والمعنى : أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها .

ومن حديث ابن عباس مرفوعا : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية »[1] .

قال ابن إسحٰق : كانت خديجة وزيرة صدق .

وعن عبد الله بن جعفر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمرتُ أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب »[2] .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « بشروا خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » .

وتعالَ معي أخي ، لنعرف معنى القصب ، ولماذا القصب بالذات جميع ألفاظ هذا الحديث ؟ وهل يدل هذا على كون الجزاء من جنس العمل ؟

قال ابن حجر : قَصَب بفتح القاف : قال ابن التين : المراد به لؤلؤة مجوّفة واسعة كالقصر المنيف . قلت : عند الطبراني في الأوسط من طريق أخرى عن ابن أبي أوفى ؛ يعني : قصب اللؤلؤ . وعنده في الكبير من حديث أبي هريرة : « بيت من لؤلؤة مجوفة » . وأصله في مسلم ، وعنده في الأوسط من حديث فاطمة قالت : قلت : يا رسول الله ، أين أمي خديجة ؟ قال : « في بيت من قصب » . قلت : أَمِنْ هذا القصب ؟ قال : «لا، من القصب المنظوم بالدرر واللؤلؤ والياقوت».

---

(١) رواه أحمد والنسائي بإسناد صحيح ، قاله الحافظ ابن حجر في الفتح (٧ / ١٠١) وصححه الحاكم في المستدرك (٣ / ١٨٥) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وابن حبان ، والحاكم في المستدرك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .
وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، وأقرّه الذهبي .
وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، غير محمد بن إسحٰق وقد صرّح بالسماع .

قال السهيلي : النكتة في قوله : « من قصب » ولم يقل : من لؤلؤ؛أن في لفظ القصب مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها ، ولذا وقعت هذه المناسبة في جميع ألفاظ هذا الحديث[1] اهـ .

وفي القصب مناسبة أخرى من جهة استواء أكثر أنابيبه ، وكذا كان لخديجة من الاستواء ما ليس لغيرها ، إذ كانت حريصة على رضاه بكل ممكن ، ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها .

وأما قوله : « ببيت » ، فقال : أبو بكر الإسكاف : في فوائد الأخبار : المراد به بيت زائد على ما أعدّ الله لها من ثواب عملها ، ولهذا **قال:** « لا نصبَ فيه » أي لم تتعب بسببه .

قال السهيلي : لذكر البيت معنًى لطيف ؛ لأنها كانت ربة بيت في الإسلام منفردة به ، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها ، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضًا غيرها .

قال : وجزاء الفعل يذكر غالبا بلفظه ، وإن كان أشرف منه ، فلهذا جاء الحديث بلفظ البيت دون لفظ القصر اهـ .

قال المناوي :

البيت عبارة عن القصر، وتسميته الكل باسم الجزء معلوم في لسانهم اهـ .

ويلوح الجزاء من جنس العمل في قول الرسول ﷺ : « لا صخب فيه ولا نصب » ، فالصخب : الصياح والمنازعة برفع الصوت ، والنصب : التعب .

قال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين- أعني المنازعة والتعب- أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام أجابته خديجة طوعًا، فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها: اهـ[2].

---

(١) فتح الباري (٧ / ١٧١ - ١٧٢) .

(٢) فتح الباري (٧ / ١٧٢) ، وفيض القدير للمناوي .

○ آسية بنت مزاحم زوج فرعون ○

عن أبي موسى قال رسول الله ﷺ : « كَمُلَ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »(١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك من نساء العالمين بأربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد »(٢) .

يقول الله تعالى في شأنها : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا** ... ﴾ [القصص : ٩] .

يقول ابن كثير :

لما فتحت الباب ، وكشفت الحجاب ، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية ، والجلالة الموسوية ، فلما رأته ووقع نظرها عليه ، أحبته حبًّا شديدًا ، فلما جاء فرعون قال : ما هذا ؟ وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ، ودفعت عنه وقالت : ﴿**قرة عين لي ولك**﴾ فقال لها فرعون : أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فلا . والبلاء موكل بالمنطق .

﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾ . وقد أنالها الله ما رجت من النفع ، أما في الدنيا فهداها الله به ، وأما في الآخرة فأسكنها بسببه جنته(٣) .

ويقول ابن كثير :

إن فرعون لما رآه همّ بقتله ؛ خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل . فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تحاجّ عنه ، وتذب دونه ، وتحببه إلى فرعون ، فقالت :

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب : قول الله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ .

(٢) رواه الترمذي وصححه ، وابن مردويه وابن عساكر .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ٢٢٤) .

﴿ **قرة عين لي ولك** ﴾ فقال : أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فلا . فكان كذلك ، وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه[١] .

يقول الحافظ في الفتح : كانت فراستها في موسى عليه السلام صادقة حين قالت : ﴿ **قرة عين لي** ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنِ لي عندك بيتًا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين** ﴾ [التحريم : ١١] .

قال الحافظ : ومن فضائل آسية امرأة فرعون:اختارت القتل على الملك ، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه[٢] .

قال ابن كثير : روى ابن جرير بسنده عن سليمان التيمي : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة .

قال ابن جرير : كانت امرأة فرعون تسأل:من غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون . فتقول : آمنت برب موسى وهارون . فأرسل إليها فرعون ، فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإنْ مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء ، فأبصرت بيتها في الجنة ، فمضت على قولها ، وانتزعت روحها[٣] .

انظر رحمك الله ، ها هي ذي امرأة فرعون ، لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه، **في قصر فرعون، عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرّأت من قصر فرعون،** طالبة إلى ربها بيتًا في الجنة . وتبرأت من صلتها بفرعون ، فسألت ربها النجاة منه ، وتبرأت من عمله ، مخافة أن يلحقها من عمله شيء ، وهي ألصق الناس به ، وتبرأت من قوم فرعون ، وهي تعيش بينهم . ﴿ **ونجني من القوم الظالمين** ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٣٢) .
(٢) فتح الباري (٦ / ٥١٦) .
(٣) تفسير ابن كثير (٤/٣٩٣ -٣٩٤).

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثلٌ للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صوره ؛ فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي ، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ، ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته ، شرًّا ودنسًا وبلاءً ، تستعيذ بالله منه ، وتتفلت من عَقَابيله ، وتطلب النجاة منه ، وهي امرأة واحدة ، في مملكة عريضة قوية ، وهذا فضل آخر عظيم ؛ فالمرأة أشد شعورًا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته ، ولكن هذه المرأة وحدها في وسط ضغط المجتمع ، وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية والمقام الملوكي ، **في وسط** هذا كله ، رفعت رأسها إلى السماء وحدها في خضم هذا الكفر الطاغي .

وهي نموذج عالٍ في التجرد لله من كل هذه المؤثرات ، وكل هذه الأواصر ، وكل هذه المعوّقات، وكل هذه الهواتف، ومِنْ ثَمَّ استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد ، الذي تتردد كلماته في جنبات الكون ، وهي تتنزل من الملأ الأعلى .

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم بنة عمران يدل على المكانة العالية ، التي جعلتها قرينة مريم في الذكر بسبب ملابسات حياتها[1] .

فكيف كان جزاؤها من جنس عملها ؟

لمّا استعلت بإيمانها على بريق قصر فرعون، أبدلها الله به قصرًا[2] في الجنة.

استعلت على جِوَار فرعون وعنديته ، فأبدلها الله به جواره وعنديته .

ومن فقهها طلبت الجار قبل الدار ، ولَبيتٌ في الجوار أفضل من ألف قصر في غير الجوار .

استعلت على جوار فرعون وهامان وعنديّة الندامة ، فكان لها عنديَة الزلفى والكرامة .

تركت الملك والدنيا وجنان فرعون ، فكانت لها الجنة .

إني لأحسد جارَكم لجوارِكم   طوبى لمن أضحى لدارك جَارا

---

(١) الظلال (٦ / ٣٦٢١ - ٣٦٢٢) .

(٢) البيت يطلق على القصر ، كما مرَّ عند ذكر خديجة ، رضي الله عنها .

ياليت جارَك بَاعني من داره شِبْرًا لأعطيه بشبرٍ دَارا

وامرأة فرعون المتطهرة المؤمنة الصادقة القانتة يضربها اللهُ نموذجًا للمؤمنات من بَعْدُ في كل جيل .

○ مريم البتول رضي الله عنها ○

يقول الله تعالى في شأن الطيبة القانتة التي كملت : ﴿ **إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررًا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبولٍ حسن وأنبتها نباتًا حسنًا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ [آل عمران : ٣٥ - ٣٧] .

يقول العلامة ابن جرير الطبري :

إن معناه : إني جعلت لك يارب نذرًا أن لك الذي في بطني محررًا لعبادتك، يعني بذلك: حبسته على خدمتك، وخدمة قدسك في الكنيسة، عتيقة من خدمة كل شيء سواك ، مفرغة لك خاصة ، فتقبل مني ما نذرت لك يارب ، إنك أنت السميع لما أقول وأدعو ، العليم لما أنوي في نفسي وأريد ، لا يخفى عليك سرُّ أمري وعلانيته[1] .

يرحم الله حنة أم مريم ، فقد كانت وزوجها وابنتها أهل بيت من الله بمكان .

عن الشعبي : فرّغته للعبادة .

عن مجاهد : خالصًا لا يخالطه شيء من أمر الدنيا .

وعن الربيع : كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها ، قال : وكانوا

---

(١) تفسير الطبري (٣ / ٢٣٥) .

إنما يحررون الذكور ، فكان المحرّر إذا حرّر جعل في الكنيسة لا يبرحها ، يقوم عليها ويكنسها .

وقال الضحاك : نذرت ولدها لله .

لمّا نذرتها وحررتها لله لم يكن للشيطان فيها نصيب .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد ، إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه »[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها »[(٢)] .

قال عكرمة : خرجت أم مريم بمريم في خرقها ، تحملها إلى بني الكاهن ابن هارون أخي موسى بن عمران ، قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فإني حررتها وهي ابنتي ، ولا يدخل الكنيسة حائض ، وأنا لا أردها إلى بيتي . فقالوا : هذه ابنة إمامنا ، وكان عمران يؤمهم في الصلاة ، وصاحب قرباتهم ، فقال زكريا : ادفعوها إليّ فإن خالتها عندي . قالوا : لا تطيب أنفسنا ، هي ابنة إمامنا ، فذلك حين اقترعوا ، فاقترعوا بأقلامهم عليها ، بالأقلام التي يكتبون بها التوراة ، فقرعهم زكريا فكفلها .

وعن ابن عباس : جعلها زكريا في محرابه ، قال الله عز وجلّ : ﴿ **وكفلها زكريا** ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وقال ابن جريج : الكاهن في كلامهم : العالم .

يقول ابن جريج : آجرها فيها وأنبتها؛ نبتت في غذاء الله .

---

(١) رواه مسلم وأحمد .
(٢) رواه مسلم .

قال ابن جرير : إن زكريا كان كلّما دخل عليها المحراب ، بعد إدخاله إياها المحراب ، وجد عندها رزقًا من الله لغذائها ، فقيل : إن ذلك الرزق الذي كان يجده زكريا عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء .

وعن ابن عباس : وجد عندها عنبًا في مِكْتَل في غير حينه . وعن سعيد مثله ومجاهد والضحاك وقتادة .

وعن ابن عباس : وجد عندها ثمار الجنة ، فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف .

وعن الحسن : كان زكريا إذا دخل عليها – يعني على مريم – المحراب وجد عندها رزقًا . من السماء من الله ، ليس من عند الناس ، وقالوا : لو أن زكريا كان يعلم أن ذلك الرزق من عنده لم يسألها عنه .

قال ابن جرير :

إن الله يسوق إلى من يشاء من خلقه رزقه ، بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده ؛ لأنه جل ثناؤه لا ينقص سَوْقُه ذلك إليه ، كذلك خزائنه ، ولا يزيد إعطاؤه إياه ومحاسبته عليه في ملكه فيما لديه شيئًا ، ولا يعزب عنه علم ما يرزقه ، وإنما يحاسب من يعطي ما يعطيه من يخشى النقصان من ملكه ، بخروج ما خرج من عنده بغير حساب معروف ، ومن كان جاهلًا بما يعطي على غير حساب(١) .

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله :

يكفي أن نعرف أنها كانت مباركة ، يفيض من حولها الخير ، ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقًا . حتى ليعجب كافلها – وهو نبيّ – من فيض الرزق ، فيسألها : كيف ؟ ومن أين هذا كله ؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه، واعترافه بنعمة الله وفضله، وتفويض الأمر إليه كله: ﴿**هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ [آل عمران : ٣٧] .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ، بتصرف (٣ / ٢٤٤ – ٢٤٧) .

وهي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه، والتواضع، لا التَّنَفّج به والمباهاة[١].

قال ابن الجوزي :

قال القدر : يا ملك التصوير ، صوّر الحَمْلَ أنثى ، ليبين أثر الكرم ، في قبول الناقص ، فلما وضعتها وضعتها بأنامل الانكسار ، عن سرير السرور ، فإن لسان التلهف لما ألقى على الفايت ﴿ **إني وضعتها أنثى** ﴾ فجبر كسرها جابر ﴿ **فتقبلها** ﴾ وساق عنان اللطف إلى ساق زرعها . فَرَبَا في رُبَى ﴿ **وأنبتها** ﴾ وكفلها زكريا ، فأراه المسبب غناها عن السبب بآية ﴿ **وجد عندها رزقًا** ﴾ فرباها من رَبِّها ، فنشأت لا ترى إلا ربها[٢].

كيف كان جزاء مريم من جنس عملها ؟

لما حبست نفسها وقدمها عن السعي طلبًا للرزق ، وتفرّغت لخدمة ربها ، عوّضها الله برزق من عنده ؛ فمن ترك شيئًا لله عوضه الله عنه خيرًا منه .

قال البقاعي :

كان من كمال مريم – عليها السلام – خروج والدتها عنها ، وكان أصله من الأم التي لها الإشفاق ، فكان خروجها أكمل من خروج الولد ؛ لأنها لها في زمن الحمل والرضاع والتربية إلى أن يعقل الولد أباه ، فحينئذ يترقى إلى حزب أبيه ، ولذلك – والله سبحانه وتعالى أعلم – أُري إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذبح ، ذبح ولده عند تمييزه ، وخرجت امرأة عمران عن حملها ، وهو في بطنها ، حين ما هو أعلق بها ، ونذرته لله تعالى حال كونه ﴿ **محررًا** ﴾ وفي الإتيان بصيغة التكثير والتكرير إشعار بمضي العزيمة في قطع الولاية عنه بالكلية ، لتسلم ولايته لله تعالى : تخوّفت ألا يكون ما وضعته كفافًا لنذرها ، لما شهدت من ظاهر أنوثة ما وضعت ، فجعلها الله سبحانه وتعالى لها أكمل مما اشتملت عليه عزيمتها

---

(١) الظلال (١ / ٣٣٩) .

(٢) المدهش ١٠٩ .

من رتبة الذكورة التي كانت تعهدها ، فكانت مريم عليها السلام أتم من معهود نذرها مزيد فضل من ربها عليها ، بعد وفاء حقيقة مقصودها في نذرها .

إن غاية ما تعرفه من المنذرين أن يكونوا كأنبيائهم المقررين لحكم التوراة ، وهذه الأنثى ، مع ما لها من العلو في نفسها ، ستكون سببًا في السؤال في نبي هو أعظم أنبيائهم ، وتلد صاحب شريعة مستقلة ، ثم يكون مقررًا لأعظم الشرائع .

مريم : أي العَابدة بلسانهم . ماذا كان عملها ؟ وماذا كان جزاؤها ؟

قال البقاعي :

لما كانت محررة لله سبحانه وتعالى ، كان حقًّا أن يجري الله سبحانه وتعالى إعاذتها قولًا ، كما هو جاعلها معاذة كونًا من حيث هي له ، وما كان في حمى الملك لا يتطرق إليه طريدة ، فقالت : ﴿ **وإني أعيذها بك** ﴾ .

ولما كان مَنْ في حصن الملك ، وحرزه بجواره بعيدًا ممن أحرقه بنار البعد ، وأهانه بالرجم ، حُققت الإعاذة بقولها : ﴿ **من الشيطان الرجيم** ﴾ .

ولما أخبر بدعائها أخبر بإجابتها فيه ، فقال : ﴿ **فتقبّلها** ﴾ فجاء بصيغة التفعل ، مطابقة لقولها : ﴿ **فتقبّل** ﴾ ففيه إشعار بتدرج وتطور وتكثر ، كأنه يشعر بأنها مزيد لها في كل طور تتطور إليه ، فيكون إعطاءً واحدًا منقطعًا عن التواصل والتتابع . وجاء بالوصف المشعر بالإحسان مضافًا إليها ، إبلاغًا في المعنى، فقال: ﴿**ربها**﴾ وظهر سر الإجابة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **بقبولٍ حسن** ﴾ حيث لم يكن بتقبل جريًا على الأول .

ولما أنبأ القبول عن معنى ما أوليته باطنًا أنبأ الإنبات عمَّا أوليته ظاهرًا في جسمانيتها، وفي ذكر الفعل من أفعل في قوله: ﴿**وأنبتها**﴾ والاسم من فعل في قوله : ﴿ **نباتًا حسنًا** ﴾ إعلام بكمال الأمرين من إمدادها في النمو الذي هو غيب عن العيون ، وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين ، فكمل في الإنباء والوقوع حسن التأثير وحسن الأثر ، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسنًا .

فوقع الجواب ؛ لأنها عناية من الله سبحانه وتعالى بها على ما وقع سؤالها فيه ، فلقد ضلَّ وافترى من قذفها وبهتها ، وكفر وغلا من ادعى في ولدها من الإطراء ما ادعى .

ولمّا كان الصغير لابدّ له فيما جرت به العادة من كبير يتولى أمره ، قال : ﴿ **وكفلها** ﴾ .

قال الحرالي : من الكفل وهو حياطة الشيء من جميع جهاته ، حتى يصير عليه كالفلك الدائر ﴿ **زكريا** ﴾ وفيه قراءة التشديد ﴿ **كفّلها** ﴾ إنباء بأن الله سبحانه وتعالى هو في الحقيقة كفيلها بما هو تقبلها، **وفيه استخلاص لزكريا** من حيث جعله يد وكالة له فيها .

ولمّا كان من شأن الكفيل القيام بما يعجز عنه المكفول ، بيّن سبحانه وتعالى أن تلك الكفالة إنما كانت جريًا على العوائد ، وأنه تبين أن تقبل الله لها أغناها عن سواه، فقال في جواب مَنْ لعله يقول: ما فعل في كفالتها؟ ﴿**كلما**﴾ أي كان كلما ﴿ **دخل عليها زكريا المحراب** ﴾ أي موضع العبادة .

وقال الحرالي : هو صدر البيت ومقدمه ، الذي لا يكاد يوصل إليه إلا بفضل منه وقوة وجهد حرب ﴿ **وجد عندها رزقًا** ﴾ وذلك كما وُجد عند خبيب ابن عدي الأنصاري - رضي الله تعالى عنه - قطف العنب ، وقبل ذلك كثير في هذه الأمة . وفي هذه العبارة من أولها إلاحة لمعنى حُسن كفالته ، وأنه كان يتفقدها عند تقدير حاجتها إلى الطعام ، بما تفيده كلمة كلما من التكرار ، فيجد الكفيل الحق قد عاجلها برزق من عنب ، بما هو سبحانه وتعالى المتولي لإنباتها ، ليكون نباتها من غيب رزقه ، فتصلح لنفخ روحه ، ومستودع كلمته ، ولا يلحقها بعد الإعاذة ما فيه مسّ من الشيطان الرجيم ، الذي أعاذها الله سبحانه وتعالى منه بكثرة الاختلاط في موجودات الأرزاق ، فكان من حفظها أن تولى الله سبحانه وتعالى إرزاقها من غيب ، إلا ما يطيبه من بادٍ ؛ ليكون حسن نباتها من أحسن رزق الله سبحانه وتعالى ، كما يقال : من غُذِّيَ بطعامِ قوم غُذِّيَ بقلوبهم ، **ومن غُذِّيَ بقلوبهم آل إلى منقلبهم. وكانت هي مثلما كفلها كافلها ظاهرًا. كفلته** باطنًا ، حتى أبدى الله سبحانه وتعالى له من أمره ما لم يكن قبل بدا له ، فكان

لمريم عليها السلام توطئة في رزقها، لما يكون كماله في حملها، فيكون رزقها بالكلمة ابتداء ، ليكون حملها بالكلمة . عند ذلك طلب زكريا عليه السلام نحو ما عاين لها من أن يرزقه الولد في غير إبانة ، كما رزق مريم الرزق من غير أوانه . وفي تعيين محلها بالمحراب ما يُلِيحُ . معنى ما ذكر من رجوليتها باطنًا ، من حيث إن محل النساء أن يتأخرن ، فأبدى الله سبحانه وتعالى في محلها ذكر المحراب ؛ إشارة لكمالها . والمحراب صدر البيت المتخذ للعبادة ، وفي لزومها المحراب في وقت تناول الرزق إعلام بأن الحبيس والمعتكف بيته محرابه ، ومحرابه بيته ، بخلاف من له متسع في الأرض ومحل من غير بيت الله .

إنما المساجد بيوت أهل الله ، المنقطعين إليه ، فهو محلهم في صلاتهم ، ومحلهم في تناول أرزاقهم ، ففيه إشعار بحضورها وحضور أهل العكوف حضور سواء في صلاتهم وطعامهم ، ولذلك أنمى حال العبد عند ربه بما هو عليه في حال تناول طعامه وشرابه ، فأهل الله سواء محياهم ومماتهم وأكلهم وصلاتهم . من غفل عند طعامه قلبه لم يستطع أن يحضر في صلاته قلبه ، ومَنْ حضر عند طعامه قلبه لم يغب في صلاته قلبه .

وفي ذكر الرزق سائغًا إشعار بأنها أنواع من أرزاق ، من حيث إنه لو اختص يخص بما هو أخصّ من هذا الاسم .

وكلمة ﴿ أنّى ﴾ تشعر باستغرابه وجود ذلك الرزق من وجوه مختلفة .

من جهة الزمان أنه ليس زمانه . ومن جهة المكان أنه ليس مكانه . ومِنْ جهة الكيف ووصوله إليها أنه ليس حاله .

وفي ذكر الضمير في قوله : ﴿هو من عند الله﴾ إيذان بنظرها إلى مجموع حقيقة ذلك الرزق ، لا إلى أعيانه ، فهو إنباء عن رؤية قلب ، لا عن نظر عين ؛ لأن ﴿هوَ﴾ كلمة إضمار، جامعة لكل ما تفصلت صوره، مما اتحد مضمره . ولعلوّ رتبته عن الرتبة العادية جرى النبأ عنه مضافًا إلى الاسم العظيم الذي هو مسمى الأسماء كلها[1].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٤ / ٣٥٠ - ٣٦٢) .

قال تعالى : ﴿ **فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيًّا قال إني عبد الله** ﴾ الآية [مريم : ٢٩ - ٣٠]. لما سلمت لأمر الله واستسلمت لقضائه ، حين أمرت ألا تكلم أحدًا من البشر ، فكُفيت أمرها ، وقام ولدها الذي في المهد بحجتها ؛ والجزاء من جنس العمل .

○ الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ○ رضي الله عنهما

قال الله تعالى : ﴿ **والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرّءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ [النور : ٢٦] .

جاء في البخاري في حديث الإفك: عن عائشة– رضي الله عنها– قالت عائشة: **فبكيت يومي ذلك كله ، لا يرقأُ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم . قالت : وأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويومًا ، لا يرقأُ لي دمع ، ولا أكتحل** بنوم ، حتى إني لأظنُّ أن البكاء فالق كبدي ، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي ، فاستأذنتْ عليّ امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي . قالت : فبينا نحن على ذلك ، دخل رسول الله ﷺ علينا ، فسلّم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، ولقد لبث شهرًا لا يُوْحَى إليه في شأني بشيء . قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : « أما بعد .. يا عائشة ، إنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه » . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبي : أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال . فقال أبي : والله ، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال . قالت أمي : والله ، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت – وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرًا –: إني والله ، لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدّقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ– والله يعلم أني منه بريئة– لتصدقني،

فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ **فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾ . ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، والله يعلم أني حينئذ بريئة ، وأن الله مبرئي ببراءتي ، ولكني والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزل في شأني وحيًا يُتْلى ، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان ، وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي أنزل عليه . قالت : فَسُرِّ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال : « يا عائشة أما الله فقد برأك » . قالت : فقالت لي أمي:قومي إليه . فقلت : لا والله ، لا أقوم إليه ؛ فإني لا أحمد إلا الله عز وجل . وأنزل الله تعالى : ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم..** ﴾ العشر آيات [النور: ١١- ٢٢] ثم أنزل الله تعالى هذا في براءتي ... الحديث .

وفيها وفي طهرها يقول حسان بن ثابت -رضي الله عنه - :

حصان رَزَانٌ ما تُزَنّ بريبةٍ	وتصبح غرثَى من لحوم الغوافلِ
عقيلة أصلٍ من لؤي بن غالبٍ	كرام المساعي مجدهم غير زائلِ
مهذّبة قد طيّب الله خيمها	وطهّرها من كل بَغْيٍ وباطلِ
فإن كان ما قد قيل عنيَ قلته	فلا رفعت سوطي إلى أناملي
وإن الذي قد قيل ليس بلائط	بها الدهر بل قول امرىء متماحِلِ
فكيف وودّي ما حييت ونصرتي	لآل رسول الله زين المحافلِ
رأيتك - وليغفر لك الله - حرةً	من المحصنات غير ذات الغوائلِ

فكيف كان جزاؤها من جنس عملها ؟

لمّا لم تدافع عن نفسها دافع الله عنها .

لمّا سكتت عن القول ببراءتها نطقت الآيات بطهارتها .

لمّا اتسمت بالتواضع كقولها : ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر ، فتكلم الله ببراءتها ، ومن تواضع لله رفعه .

فضائل عائشة كثيرة بعضها يكفيها ، وبحسبها أن الله أنزل آيات تتلى فيها ، إن كان رسول الله ﷺ يقول لها : « ذاك جبريل ، وهو يقرئك السلام » . **قالت :** وعليه السلام . فمَنْ هذه حالتها مع جبريل كيف يجوز عليها الزور والأباطيل ؟

أمّا أهل السنة فقلوبهم بالفرح عند ذكر عائشة طائشة ، وأما الرافضة فتأخذهم حُمّى نافضة .

سجـع

هي اختيار العظيم العلي للنبي ﷺ ، ومذ طفولتها تعرَف بالعز الأبي ، ولها عقل الكبار في سنّ الصبي ، وهل يضرّها قول الجهول الغبيّ ، أو يقدح في ريح المسك الذكيّ إلا بهيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ [النور : ١١] .

ما تزوّج الرسول ﷺ بكرًا سواها ، ولا أحب زوجة كحبه إياها ، جاء بها المَلَكُ في سَرقة فجلّاها ، وتكلم الله ببراءتها سبحان من أعطاها ، وما يرمي الأصحاء بالسقم إلا سقيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

واعجبًا لمبغضيها مَنْ هم ؟ إن فهمت قولي قلت : إنْ هُمْ ، ضرّهم والله ما صدر عنهم ، خفّت والله عقولهم ، والآفة تُهيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

ما خفي على حسّادها طهارة ذيلها ، غير أن الطباع الرديّة في ميلها ، هجمت عليها الأحزان بِرَجْلِها وخيلها . فكانت طول نهارها وليلها ، تبكي بكاء اليتيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

مدّوا أبْوَاعهم إلى عرضها فما نالوا ، وأكثروا القول ظاهرًا وباطنًا واحتالوا . ونوّعوا أسباب القذف وتكلموا وأطالوا ، وهي على طهارتها مما قالوا ، في مقعد مقيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

تكلموا فيها بترّهات ، وراموا ذمَّ السماء وهيهات ، يا عائبها إن عرفت عيبًا فهاتْ ، كفانا الله شر عقوق الأمهات ، فإنه قبيح ذميم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

ما كان سوى غيم ثم تجلّى ، وانصرف الحزن وتولّى بالفرح الذي تولّى ، ولبس الممدوح أحسن الحليّ وتحلّى ، وحمل القاذف إثمًا وكلّا ، أيقدح العقلاء في أمهاتهم ، القادحون كلّا هي منهم عقيم . ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ . حُوشيت من ريب أو فجور ، إنما زيدت بما جرى في الأجور ، تنزهت أم العدول أن تجور ، إنما وقعت في أغباش ليل ديجورِ ، ثم بان النور في سورة النور ، فنزل في الكلام العظيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

○ أم إسماعيل عليه السلام ○

روى البخاري عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ الناس المنطق من قبل - أمُّ إسماعيل ، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت : ياإبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء ؟. فقالت له ذلك مرارًا ، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذًا لا يضيعنا . ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى كان عند الثنيّة حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ **ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات**

لعلهم يشكرون﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال : يتلبط ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا ، ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فذلك سعي الناس بينهما » ، فلما أشرفت على المروة فسمعت صوتًا فقالت : صه ! تريد نفسها ، ثم تسمّعت فسمعت أيضًا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهي تفور بعد ما تغرف .

قال ابن عباس:قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال : -لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا » . فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيت الله ، يبني هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريًا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا ، قال : وأمّ إسماعيل عند الماء فقالوا : تأذنين لنا أن ننزل عندك قالت : نعم . ولكن لاحقّ لكم في الماء . قالوا : نعم . قال عبد الله بن عباس : قال النبي ﷺ : فألفى ذلك أم إسماعيل وهي

تحب الأنس ، فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ... » الحديث .

فهل كان جزاء أم إسماعيل من جنس قولها وعملها ؟

يودعها إبراهيم – عليه السلام – هي وفلذة كبدها عند جبال فاران ، موضع مكة الآن ، حيث لا حسيس ولا أنيس ، وحيث المكان القفر الموحش ، وتقول : آلله أمرك بهذا ؟ فيقول : نعم . فتقول : إذًا فلن يضيعنا . وثقت بما عند الله عز وجل فما كان جزاؤها ؟

قال لها الملك : لا تخافي الضيعة . إن الله لا يضيع أهله . تركت وراءها كل شيء ، وفقدت كل شيء حتى الماء ، وجعلت تتروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرّة الملتهبة ، وهي تهرول بين الصفا والمروة ، وقد نهكها العطش ، وهدّها الجهد ، وأضناها الإشفاق على الطفل ، ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء وإذا هي زمزم ، ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب .

تركت وراءها كل شيء فجاد الله عليها بكل شيء بزمزم وفيها كل شيء ، لقول رسولنا ﷺ « زمزم لما شرب له »[1] ، « وزمزم طعام طُعم ، وشفاء سقم »[2] ومَنّ الله عليها بالأنس بعد ما فقدته .

ولكرامتها على الله لم يرسل أحدًا من عامّة الناس لحفر البئر وإنما الملك ، وسيد أهل السماء جبريل بعقبه أو جناحه . جبريل يحفر ، وإسماعيل يشرب ، ورسول الله ﷺ يتمنى أن يستسقي ، وصار السعي دينا ، وصار الشرب سنة ، وكل قطرة من زمزم قصة تروى ، وتحوي ظلّا وديعا يروّي هجير دنيانا ، والجزاء من جنس العمل .

---

(١) حديث صحيح : جمع فيه الحافظ ابن حجر جزءًا . انظر كتابي « الرياض النضرة في فضائل الحج والعمرة » .

(٢) حديث صحيح .

○ أم موسى عليه السلام ○

قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾ [القصص: ٧].

وقال تعالى: ﴿**وحرّمنا عليه المراضع من قبل ...**﴾ الآية [القصص: ١٢].

وثقت أم موسى التقية بما عند الله عز وجل ، إن الأم إذا خافت على ابنها ضمّته إلى صدرها ، يالله !! يا للقدرة !! يا أم موسى أرضعيه ، فإذا خفت عليه وهو في حضنك ، وهو في رعايتك ، إذا خفت عليه وفي فمه ثديك ، وهو تحت عينيك فألقيه في اليم !!

وثقت وهي الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة بما عند الله ، وبإلهام الله ، ونزل الإلهام على قلبها المحرور بردًا وسلامًا .

فما كان جزاؤها ؟

حرّم الله على موسى المراضع إلا ثدي أمه ، جعلوا يبحثون له عن ظئرٍ ترضعه .

لما ألقته ثقة بما عند الله ، ردّه الله إليها ، وجعله من المرسلين ، وكذا هدية الملك ، فإن الشيء إذا ردّ وأتى من الكريم يأتي مضمخا بنواله وعطائه وكرمه ﴿**ولتصنع على عيني**﴾ [طه: ٣٩] ﴿**إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾ [القصص : ٧] تلك بشارة الغد ، ووعد الله أصدق القائلين .

كانت قبل ذلك ترضعه على خوف من فرعون وملئه ، فالآن ترضعه على عين فرعون ، يحميه فرعون ، وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير ، انظر إلى أم موسى ونهاية يقينها وثقتها بما عند ربها وصبرها ، ترضع ولدها ، وتأخذ على ذلك أجرها .

لطيفة :

لمّا سعت بتابوته إلى البحر ارتعشت يد التسليم فأمسكها ، فصاح شجاع الشجاعة بملء فيه : اقذفيه فيه ، فصدرت بعد إلقائه بصدر قد لوى به لواعج الاشتياق ، لا يعلم قَدْر ما به إلّا مَنْ رمى به ، فتلقاها بالبشير بشير ﴿ **إنا**

رادّوه﴾ فلم تزل أمواج اليم تيمم به مسالك القدر ، فألقته في برية **﴿فالتقطه﴾** فلما فتحوا التابوت ، أسفر عن مسافر على نجيب النجابة ، قد جعل زاده في مزود **﴿ولتصنع﴾** ، ووشحت قلادة الحب ، قد رصعت بدرّ **﴿وألقيت﴾** ، فقام فرعون على أقدام الإقدام على قتله ، فخرجت آسية من كمين أتباعه تنطق على لسان **﴿ سبقت لهم ﴾** ، وتنادي في مخدع خديعة الحرب **﴿ قرة عين لي ولك ﴾** ، وتجمع في كلامها ما هو فرد في لغة الغدر **﴿ عسى أن ينفعنا ﴾** فلم يزل فرعون في أغباش غرور يذبح ، حتى طلع غرر صبح **﴿ ونريد أن نمنّ﴾**، فلمّا قصّ شوق أمه جناح صبرها، **﴿وقالت لأخته قصيه فبصرت به﴾** في حريم **﴿وحرّمنا﴾** فدنت ، فدندنت حول حلة الحيلة تجول **﴿هل أدلكم﴾**، فلما حفظت باب المكر بحارس **﴿ يكفلونه لكم ﴾** ، دخل طفيلي الوجد من باب **﴿وهم له ناصحون﴾**، فجاءت بأمها يؤمها دليل الطرب ، فكادت إذ حضرت تحضر في ميدان **﴿لتبدي به﴾**، فكبحها لجام **﴿لولا أن ربطنا﴾** فخافت لسان جهرها لما خافت . فسلّ من أيديهم إلى سلم تسليمها ، فقرّ في حجر **﴿ كي تقرعينها ﴾** ورُبي موسى في رُبا فرعون ، ونما بين نمارقه . إلى أن آن أوان مشاجرته .

○ أسماء ذات النطاقين ○

في حديث الهجرة من حديث عائشة الذي رواه البخاري : فجهزناهما أحسن الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها ، فربطته على فم الجراب ، فبذلك سميت : ذات النطاق . وفي رواية الكُشْميهنيّ : النطاقين .

قال ابن حجر :

والنطاق : ما يشد به الوسط ، وقيل : هو إزار فيه تكة ، وقيل : هو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ، ثم ترسل الأعلى على الأسفل .

والمحفوظ أنها شقت نطاقها نصفين ، فشدت بأحدهما الزاد واقتصرت على الآخر ، ومن ثَمّ قيل لها : ذات النطاق ، وذات النطاقين[١].

وعند ابن سعد من حديث الباب : شقت نطاقها ، فأوكأت بقطعة منه الجراب ، وشدت فم القربة بالباقي فسميت : ذات النطاقين .

وعند البخاري عن أسماء رضي الله عنها : صنعت سفرة للنبي ﷺ وأبي بكر حين أرادا المدينة ، فقلت لأبي : ما أجد شيئًا أربطه إلا نطاقي ، قال : فشقيه ، فقلت : فسميت : ذات النطاقين .

وعند ابن سعد عن أسماء قالت : صنعت سفرة للنبي ﷺ في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة فلم نجد لسفرته ولا لسقائه ما نربطهما به ، فقلت لأبي بكر : ما أجد إلا نطاقي . قال : شقيه باثنين ، فاربطي بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة . قال ابن حجر في الإصابة (٤ / ٢٢٤) : وسنده صحيح .

قال الزبير بن بكار في هذه القصة : قال لها رسول الله ﷺ : « أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة » فقيل لها : ذات النطاقين[١] .

والجزاء من جنس العمل .

قال ابن عبد البر في الاستيعاب : لما بلغ ابن الزبير أن الحجاج يعيره بابن ذات النطاقين أنشد قول الهذلي متمثلًا :

وعيَّرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها
فإن أعتذر منها فإني مكذب ... وإن تعتذر يردد عليك اعتذارها

ويرحم الله من يقول :

إذا ما محاسني التي أدلّ بها ... كانت عيوبي فقل لي كيف أعتذر؟

---

(١) الفتح (٧ / ٢٨٧) .

(٢) انظر الإصابة (٢٢٤/٤)، والاستيعاب لابن عبد البر على هامش الإصابة (٢٢٩/٤).

○ أم أيمن رضي الله عنها حاضنة رسول الله ﷺ ○

عن عثمان بن القاسم قال : لمّا هاجرت أم أيمن أمست بالمتصرف دون الروحاء ، فعطشت وليس معها ماء ، وهي صائمة ، وجهدت ، فدُلِّي عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض ، فشربت ، وكانت تقول : ما أصابني بعد ذلك عطش ، ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت[1] .

والجزاء من جنس العمل .

وجاء في السيرة الحلبية[2] في الكلام على غزوة أحد : رأت أم أيمن فلول المسلمين يريدون دخول المدينة ، فأخذت تحثو في وجوههم التراب ، وتقول لبعضهم: هاك المغزل، وهلم سيفك. ثم سارعت إلى ساحة القتال، فأخذت تسقي الجرحى ، فرماها حِبان بن العرقة بسهم ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله في الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهمًا لا نصل له ، وقال : « ارم به » . فرمى به سعد ، فوقع السهم في نحر حبان، فوقع مستلقيًا حتى تكشف، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجزه، ثم قال : « استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته » .

والجزاء من جنس العمل .

○ أم سُلَيم الغميصاء « الرُّميصاء » رضي الله عنها ○

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة ، وسمعت خشفة فقلت : من هذا ؟ فقال :

---

(١) أخرجه ابن سعد (٨/٢٢٤) وعنه الحافظ في الإصابة (١٣/١٧٨) ورجاله ثقات ، لكنه منقطع .

(٢) (٢ / ٣٢) .

هذا بلال »[1] .

وعن أنس قال : قال النبي ﷺ : « دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يديّ فإذا أنا بالغميصاء بنت ملحان »[2] .

خطبها أبو طلحة وكان مشركًا، فقالت: إني قد آمنت، فإن تابعتني تزوجتك، قال : فأنا على مثل ما أنت عليه ، فتزوجته أم سُليم ، وكان صداقها الإسلام .

عن أنس رضي الله عنه قال : تزوج أبو طلحة أم سليم ، فكان صداق ما بينهما الإسلام ، أسلمت أم سليم قبل أبي طلحة فخطبها ، فقالت : إني قد أسلمت فإن أسلمت نكحتك ، فأسلم فكان صداق ما بينهما[3] .

عن أنس قال : خطب أبو طلحة أم سُليم فقالت : إنه لا ينبغي أن أتزوج مشركًا ! أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها عبد آل فلان ، وأنكم لو أشعلتم فيها نارًا لاحترقت ؟ قال : فانصرف وفي قلبه ذلك ، ثم أتاها وقال : الذي عرضت عليّ قد قبلت ، قال : فما كان لها مهر إلا الإسلام[4] .

قال ثابت : ما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سليم ؛ الإسلام ، فدخل بها فولدت له .

ولمّا كان مهرها الإسلام ، مهر عجيب غالٍ ، حدثت منها الأعاجيب وكان جزاؤها من جنس عملها .

عن أنس رضي الله عنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدخل بيتًا غير بيت أم سُليم فقيل له : فقال : « إني أرحمها ، قتل أخوها معي »[5].

كان رسول الله ﷺ يقيل في بيتها .

عن ثابت عن أنس قال : مات ابن لأبي طلحة من أم سُلَيم فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه . قال : فجاء فقربت إليه عشاء ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢ / ٣٠٩) وإسناده صحيح .

(٣) أخرجه النسائي، وسنده صحيح. (٤) رواه ابن سعد في الطبقات، وإسناده صحيح.

(٥) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد .

فأكل وشرب فقال : ثم تصنّعت له أحسن ما كانت تَصنّعُ قبل ذلك فوقع بها . فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها . قالت : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا .. قالت : فاحتسب ابنك. قال: فغضب. وقال: تركتني حتي تلطخت ثم أخبرتني بابني!! فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكما في غابرِ ليلتكما » . قال : فحملت . قال : فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معي ، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقا ، فدنوا من المدينة فضربها المخاض ، فاحتبس عليها أبو طلحة ، وانطلق رسول الله ﷺ قال : يقول أبو طلحة : إنك لتعلم يارب أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتبست بما ترى ، قال : تقول أم سليم : يا أبا طلحة ، ما أجد الذي كنت أجد انطلق ، فانطلقنا ، قال : وضربها المخاض حين قدما فولدت غلامًا ....[1] .

وهذا الغلام هو عبد الله بن أبي طلحة الذي حنّكه رسول الله ﷺ.قال عَباية بن رفاعة : لقد رأيت لذلك الغلام سبعَ بنين ، كلهم قد ختم القرآن[2].

قال النووي : حملت بعبد الله بن أبي طلحة في تلك الليلة ، وجاء من ولده عشرة رجال علماء أخيار[3].

فانظر كيف كان جزاؤها من جنس عملها .. لما صبرت على فقد ولدها ، واحتسبته عند ربها .

○ رِبْعِيّ بن حراش ○

الإمام القدوة الوليّ الحافظ الحجة ، أبو مريم الغَطَفانيّ .

عن الحارث الغنوي قال : آلى ربعي بن حِراش أن لا تفتر أسنانه ضاحكًا حتى يعلم أين مصيره .

---

(١) رواه مسلم . (٢) أخرجه ابن سعد ورجاله ثقات .

(٣) شرح النووي على مسلم (٣٢٢/٥) . والغلام الذي مات هو أبو عُمير صاحب النغير .

قال الحارث الغنوي : فأخبر الذي غسّله أنه لم يزل متبسمًا على سريره – ونحن نغسله – حتى فرغنا منه ، رحمة الله عليه .

والجزاء من جنس العمل .

وكم لسادات العباد من هذه الأمة آي .

○ إمام أهل السنة أحمد بن حنبل – رحمه الله – ○

السيد الكبير من سادات أولياء الأمة المحمدية ، وشيخ المحدثين أبو عبد الله .

قال المروذي : سمعت أبا عبد الله يقول : الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب ، فما أشتهيه .

وقال : وأراد أبو عبد الله أن يبول في مرضه الذي مات فيه ، فدعا بطست ، فجئت به ، فبال دمًا عبيطًا ، فأريته عبد الرحمن المتطبب فقال : هذا رجل قد فتّت الغم – أو قال الحزن – جوفه[1] .

الإمام الخائف الذي خاف ربه فهابته الخلائق .

قال محمد بن مسلم : كنا نهاب أن نردّ أحمد بن حنبل في الشيء ، أو نحاجّه في شيء من الأشياء ؛ لجلالته ولهيبة الإسلام الذي رُزِقه .

وقال الحسن بن أحمد – والي الجسر – : دخلت على إسحاق بن إبراهيم وفلان – ذكر السلاطين – ما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل ، صرت إليه أكلمه في شيء ، فوقعت عليّ الرعدة حين رأيته من هيبته .

قال المروذي : ولقد طرقه الكلبي صاحب خبر السرّ ليلًا ، فمن هيبته لم يقرعوا عليه بابه ودقوا باب عمه .

قال عبدوس : رآني أبو عبد الله يومًا وأنا أضحك ، فأنا أستحييه إلى اليوم .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : جالست أبا يوسف ومحمد بن الحسن

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٣٥٣ .

ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي ، فما هبت أحدًا منهم ما هبت أحمد ابن حنبل[1].

ولقد كان الإمام أحمد ينهى عن كَتب كلامه ، ويكره ذلك .

قال أبو بكر المَرُّوذي : رأيت رجلًا خراسانيًّا قد جاء إلى أبي عبد الله ، فأعطاه جزءًا ، فنظر فيه أبو عبد الله ، فإذا فيه كلام لأبي عبد الله ، فغضب فرمى الكتاب من يده .

قال أحمد بن حنبل : القلانس من السماء تنزل على رءوس قوم يقولون برءوسهم هكذا وهكذا ، المعنى لا يريدها .

ومعنى الكلام أنهم لا يريدون الرئاسة ، وهي تقع عليهم .

وكذلك كان أحمد - رضي الله عنه - ينهى عن كتب كلامه تواضعًا ، وقدّر الله أن دون ورُتِّبَ وشاع[2] .

يقول ابن القيم في أعلام الموقعين :

وكان رضي الله عنه- يعني الإمام أحمد- شديد الكراهة لتصنيف الكتب، وكان يحب تجريد الحديث ، ويكره أن يكتب كلامه ، ويشتد عليه جدًّا ، فعلم الله حسن نيته وقصده ، فكُتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سِفْرًا ، مَنّ الله سبحانه علينا بأكثرها ، فلم يفتنا منها إلا القليل . وجمع الخلّال نصوصه في الجامع الكبير ، فبلغ نحو عشرين سِفْرًا أو أكثر .

والجزاء من جنس العمل .

من أطاع الله أطاعته الخلائق :

روي أن الإمام أحمد كان جالسًا في مسجده ، إذ جاءه صاحب له من قبل الخليفة المتوكل ، فقال : إن في بيت أمير المؤمنين جارية بها صرع ، وقد أرسلني إليك ، لتدعو الله لها بالعافية ، فأعطاه الإمام أحمد نعلين من الخشب ،

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٢) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص٢٥١ - ٢٥٢ .

وقال : اذهب إلى دار أمير المؤمنين ، واجلس عند رأس الجارية ، وقل للجني: يقول لك أحمد ، أيما أحب إليك : تخرج من هذه الجارية ، أو تصفع بهذا النعل سبعين ؟.

فذهب الرجل ومعه النعل إلى الجارية ، وجلس عند رأسها ، وقال كما قال له الإمام أحمد . فقال المارد على لسان الجارية : السمع والطاعة لأحمد ، لو أمرنا أن نخرج من العراق لخرجنا منه ، إنه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء . ثم خرج من الجارية ، فهدأت ، ورزقت أولادًا .

فلما مات الإمام ، عاد لها المارد ، فاستدعى لها الأمير صاحبًا من أصحاب أحمد، فحضر ومعه ذلك النعل، وقال للمارد: اخرج وإلا ضربتك بهذه النعل. فقال المارد : لا أطيعك ولا أخرج ، أما أحمد بن حنبل ، فقد أطاع الله فأمرنا بطاعته[1] . أو لقد مات من أطعناكم بسببه ، من قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن اشتاق إلى الله اشتاق إليه كل شيء ، ومن أنس بالله أنس به كل مستوحش وطاب به كل خبيث ، من أطاع الله أطاعته الخلائق .

والجزاء من جنس العمل .

الإمام والمحنة :

انظر يا أخي ، لتعرف قدر سادات الرجال .

لولا سياط على ظهر ابن حنبل ما صار إمام أهل السنة .

يضرب في محنة خلق القرآن ، ويُعذب ، ويخرج منها ذهبًا خالصًا .

كانت نفسه عليه في الله تعالى أهون من نفس ذباب ، وإنما تهون أنفسهم عليهم لتلمحهم العواقب ، فعيون البصائر ناظرة إلى المآل لا إلى الحال ، وشدة ابتلاء أحمد دليل على قوة دينه ، لأنه قد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « يبتلى الرجل على حسب دينه » . فسبحان مَنْ أيده وبصره وقواه ونصره .

قال ابن الجوزي : هذا رجل هانت عليه نفسه في الله تعالى فيذلّها . قال بعض الجلادين : لقد بطل أحمد بن حنبل الشطار ، والله لقد ضربته ضربًا لو

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٥١

أبرك لي بعير فضربته ذلك الضرب ، لنقبت عن جوفه .

وقال شاباص التائب : لقد ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطًا ، لو ضربته فيلًا لهدّته .

قال أبو زرعة : لم أزل أسمع الناس يذكرون أحمد بن حنبل بخير ، ويقدمونه على يحيى بن معين وأبي خيثمة ، غير أنه لم يكن من ذكره ما صار بعد أن امتحن ، فلما امتحن ، ارتفع ذكره في الآفاق .

قال أبو غالب ابن بنت معاوية قال : ضرب أحمد بن حنبل بالسياط في الله ، فقام مقام الصديقين في العشر الأواخر من رمضان سنة عشرين ومائتين .

قال محمد بن إبراهيم بن مصعب - وهو يومئذ على الشرط للمعتصم خليفة إسحق بن إبراهيم أنه قال : ما رأيت أحدًا لم يداخل السلطان ولا خالط الملوك أثبت قلبًا من أحمد يومئذ ؛ ما نحن في عينه إلا كأمثال الذباب .

قال الإمام : لما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال : ائتوني بغيرها ، فأُتي بغيرها ، ثم قال للجلادين : تقدموا . قال : فجعل يتقدم إليّ الرجل فيضربني بسوطين، فيقول له- يعني المعتصم-: شد، قطع الله يدك! ثم يتنحى، ثم يتقدم الآخر فيضربني سوطين ، وهو في كل ذلك يقول لهم : شدوا،قطع الله أيديكم . فلما ضربت تسعة عشر سوطا قام إليّ - يعني المعتصم - فقال : يا أحمد ، علام تقتل نفسك ؟ إني والله عليك شفيق . قال : فجعل عُجَيف ينخسني بقائم سيفه، وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك ، الخليفة على رأسك قائم ؟ وقال بعضهم : يا أمير المؤمنين ، أنت صائم ، وأنت في الشمس قائم ! فقال لي : ويحك يا أحمد ، ما تقول ؟ فأقول : أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسول الله ﷺ أقول به . قال : ثم رجع فجلس ، ثم قال للجلاد : تقدم ، أَوْجِع ، قطع الله يدك ! ثم قام الثانية ، فجعل يقول : ويحك يا أحمد ، أجبني . فجعلوا يقبلون علي ويقولون : ويحك يا أحمد، إمامك على رأسك قائم، وجعل عبد الرحمن يقول: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ قال:وجعل يقول- يعني المعتصم-:ويحك يا أحمد، أجبني

إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي . قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ، أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله ﷺ حتى أقول به . قال : فرجع فجلس ، فقال للجلادين : تقدموا ، فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى ، وهو في خلال ذلك يقول : شد،قطع الله يدك ! قال أبي : فذهب عقلي ، فأفقت بعد ذلك ، فإذا الأقياد قد أطلقت عني ، فقال لي رجل ممن حضر : إنا كبيناك على وجهك ، وطرحنا على ظهرك بارية ودُسناكَ ! قال أبي : فما شعرت بذلك ، وأتوني بسَوِيق فقالوا لي : اشرب وتقيأ ، فقلت : لست أفطر . ثم جيء بي إلى دار إسحق بن إبراهيم ، فحضرت صلاة الظهر ، فتقدم ابن سماعة فصلّى ، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليت والدم يسيل في ثوبك؟ فقلت: قد صلى عمر وجرحه يثعَبُ دمًا[1].

هذا الإمام العظيم الذي هانت عليه نفسه في الله ، عظم في أعين سادات أهل السنة والجماعة .

فَها هُوَ يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري يقبل جبهة أحمد ووجهه حين أخرج من الحبس . وسليمان بن داود الهاشمي يقبل جبهة أحمد ورأسه .

وقال علي بن المديني : أحمد بن حنبل سيدنا .

وقال أيضًا : اتخذت أحمد بن حنبل إماما فيما بيني وبين الله ، ومَنْ يقوى على ما يقوى عليه أبو عبد الله .

وقال : إن الله عز وجل أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث ، أبو بكر الصديق يوم الردة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة .

وقال يحيى بن معين : أراد الناس أن أكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ، لا أكون مثل أحمد أبدًا .

وقال إسحٰق بن راهويه : لولا أحمد بن حنبل وبَذْل نفسه لمَّا بذلها له ؛ لذهب الإسلام.

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص٤٠٦ – ٤٠٧ .

قال بشر بن الحارث : أدخل أحمد الكير ، فخرج ذهبًا أحمر ، فبلغ ذلك أحمد ، فقال : الحمد لله الذي رَضَّى بشرًا بما صنعنا .

وقالوا له : قد حُمل أحمد وحملت السياط ، وقد وجب عليك أن تتكلم . فقال : أتريدون مني مقام الأنبياء ؟ ليس ذا عندي حفظ الله أحمد بن حنبل من بين يديه ومن خلفه .

هانت عليه نفسه فعزّ عند الساده..، والجزاء من جنس العمل .

○ شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي ○

الإمام القدوة الحافظ الكبير شيخ خراسان ، من ذرية صاحب النبي ﷺ أبي أيوب الأنصاري .

لما قدم السلطان ألب أرسلان هراة في بعض قدماته ، اجتمع مشايخ البلد ، ورؤساؤه ، ودخلوا على أبي إسماعيل ، وسلموا عليه ، وقالوا : ورد السلطان ونحن على عزم أن نخرج ، ونسلم عليه ، فأحببنا أن نبدأ بالسلام عليك . وكانوا قد تواطئوا على أن حملوا معهم صنمًا من نحاس صغيرًا ، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ ، وخرجوا ، وقام الشيخ إلى خلوته ، ودخلوا على السلطان ، واستغاثوا من الأنصاري ، وأنه مُجسِّم ، وأنه يترك في محرابه صنمًا يزعم أن الله تعالى على صورته ، وإنْ بَعَثَ السلطان الآن يجده ، فعظم ذلك على السلطان ، وبعث غلامًا وجماعة ، فدخلوا ، وقصدوا المحراب فأخذوا الصنم ، فألقى الغلام الصنم ، فبعث السلطان من أحضر الأنصاري ، فأتى فرأى الصنم والعلماء ، وقد اشتد غضب السلطان، فقال له السلطان: ما هذا؟ قال: صنم يعمل من الصُفْرِ شبه اللُّعبة . قال : لست عن ذا أسالك . قال : فَعَمّ يسألني السلطان ؟ قال : إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا ، وأنك تقول : إن الله على صورته . فقال شيخ الإسلام بصولة وصوت جهوري : سبحانك ! هذا بهتان عظيم !! فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه ، فأمر به ، فأُخرج إلى داره مكرمًا ، وقال لهم : اصدقوني ، وهددهم ، فقالوا : نحن في يد هذا في بليّة من استيلائه علينا بالعامّة ،

فأردنا أن نقطع شرّه عنّا. فأمر بهم، ووكل بهم، وصادرهم، وأخذ منهم وأهانهم[١].

أرادوا الكيد لشيخ الإسلام ، فكاد الله لهم .

وقد كان– الشيخ– سيفًا مسلولًا على المتكلمين، له صولة وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده، يعظمونه، ويتغالون فيه، ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به. كان عندهم أطوع وأرفع من السلطان بكثير، وكان طَوْدًا راسيًا في السنة لا يتزلزل ولا يلين رحمه الله[١].

○ الحافظ الإمام عبد الغني المقدسي ○

قال له الفقيه نجم بن عبد الوهّاب الحنبلي وقد حضر مجلسه : يا تقي الدين ، لقد حملت الإسلام ، ولو أمكنني ما فارقت مجلسك[٢] .

هذا الإمام الذي ما كان ينام من الليل إلا قليلًا ، بل يصلي ويقرأ ويبكي .

من هاب الله هابه كل شيء ، من خاف من الله خاف منه كل شيء ، والجزاء من جنس العمل،فتعال معي حتى ترى .

يروي الحافظ الذهبي : كان بعض أولاد صلاح الدين قد عُمِلت لهم طنابير وكانوا في بستان يشربون ، فلقي الحافظ الطنابير فكسرها . قال : فحدثني الحافظ ، قال : فلما كنت أنا وعبد الهادي عند حمام كافور إذا قوم كثيرٌ معهم عصيّ ، فخففت المشي، وجعلت أقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فلما صرت على الجسْر لحقوا صاحبي ، فقال : أنا ما كسرتُ لكم شيئًا ، هذا هو الذي كسر . قال : فإذا فارس يركض فترجّل ، وقبّل يديّ ، وقال : الصبيان ما عرفوك . وكان قد وضع الله له هيبة في النفوس[٣].

وكان إذا دخل على الملك العادل يقوم له ويلتزمه ، وكان يقول عن الحافظ : ما رأيت بالشام ولا مصر مثل فلان ، دخل عليّ فخُيِّلَ إليّ أنه أسد .

وقال العادل : ما خفت من أحد ما خفت من هذا ، فقلنا : يأيها الملك ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/٥٠٩ ، ٥١٢) (٢) سير أعلام النبلاء (٢١/٤٥٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/٤٥٥) .

هذا رجل فقيه . قال : لما دخل ما خُيّل إليّ إلا أنه سبع[١] .

○ شيخ الإسلام ابن تيمية ○

شيخ المسلمين، ودرة الموحدين، وبقية السلف العامَلين، سيرته تحتاج لمجلدات ضخام، ولكن .

قليل منك يكفيني ولكن   قليلك لا يقال له قليل

حديث ابن تيمية مع قازان :

لما ظهر قازان على دمشق المحروسة جاءه ملك الكُرج ، وبذل له أموالًا كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق ، ووصل الخبر إلى ابن تيمية ، فخرج ورجال من وجوه دمشق وكبرائهم وذوي الأحلام منهم ، في يوم الإثنين الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هجرية إلى حضرة قازان ، فلما رآهم السلطان قال : من هؤلاء ؟ فقيل : هم رؤساء دمشق ، فأذن لهم فحضروا بين يديه . فتقدم الشيخ رضي الله عنه أولًا ، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة ، حتى أدناه وأجلسه وأخذ الشيخ في الكلام معه أولا في عكس رأيه عن تسليط المخزول ملك الكرج على المسلمين ، وأخبره بحرمة دماء المسبلمين ، وذكّره ووعظه، فأجابه إلى ذلك طائعًا، وحُقنت بسببه دماء المسلمين ، وحُميت ذراريهم، وصين حريمُهم.

يقول الحافظ عمر بن البزار في الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية :

حدثني من أثق به ، عن الشيخ وجيه الدين بن المنجّا قدس الله روحه ، قال : كنت حاضرًا مع الشيخ حينئذٍ ، فجعل - يعني الشيخ - يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه حتى جثا على ركبتيه ، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكُليته ، مصْغ لما يقول ، شاخص إليه ، لا يُعرض عنه ، وإن السلطان من شدة ما أوقع الله

(١) سير أعلام النبلاء (٢١ / ٤٥٥) .

في قلبه من المحبة والهيبة ، سأل من يخصّه من أهل حضرته : مَنْ هذا الشيخ ؟ وقال ما معناه : إني لم أر مثله ولا أثبت قلبًا منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقيادًا مني لأحد منه ، فأخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ للترجمان: قل لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذنون - على ما بلغنا - فغزوتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجرت .

وسأله إن أحببت أن أعمر لك بلد آبائك حَرّان ، وتنتقل إليه ، ويكون برسمك . فقال : لا والله ، لا أرغب عن مهاجر إبراهيم ﷺ وأستبدل به غيره .

فخرج من بين يديه مكرمًا معززًا ، قد صنع له الله بما طوى عليه نيته الصالحة من بذله نفسه في حقن دماء المسلمين ؛ فبلغه ما أراده .

وكان ذلك أيضًا سببًا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم[١] .

بل خلّص أهل الذمّة من النصارى واليهود ؛ لأن التتار ومن معهم من ملوك النصارى كانت لهم عداوة مع أبناء دينهم ، وكان بعضهم يفتك بالبعض الآخر . فقال ابن تيمية للقائد - بولاي - وكان قد التحق مع قازان : بل جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل ذمتنا ، فإنا نفكهم ولا ندع أسيرًا ، لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة .

يقول ابن تيمية : وقد أطلقنا من النصارى من شاء الله . فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

قال ابن تيمية: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، فإن رجلًا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة. فقال: لو صححت لم تخف أحدًا .

---

(١) الأعلام العلية ص٦٩ - ٧٢ .

فابن تيمية الخائف الوجل الذي يهاب ربه تهابه الملوك ، وجزاؤه من جنس عمله .

وقد قص أيضًا هذه القصة الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر بن قوام البالسي ، وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لما تكلم مع قازان ، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه ، وأنه قال لترجمانه : قل لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاضٍ وإمام وشيخ – على ما بلغنا – فغزوتنا ، وبلغت بلادنا على ماذا ؟ وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين ، وما غزوا بلاد الإسلام ، بل عاهدوا قومنا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت . قال : وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونوب ، قام ابن تيمية فيها كلها لله ، وقال الحق ، ولم يخش إلا الله عز وجل . قال : وقرب إلى الجماعة طعامًا فأكلوا منه إلا ابن تيمية ، فقيل له : ألا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس . قال : ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه : اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيده ، وملكه البلاد والعباد ، وإن كان إنما قام رياءً وسمعة وطلبًا للدنيا ، ولتكون كلمته هي العليا ، وليذلَّ الإسلام وأهله ، فاخذله وزلزله ، ودمره واقطع دابره . قال : وقازان يؤمن على دعائه ، ويرفع يديه .

قال : فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله . قال : فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين بن صرصري وغيره : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا. فقال: وأنا والله لا أصحبكم . قال : فانطلقنا عصبة ، وتأخر هو في خاصة نفسه ، ومعه جماعة من أصحابه ، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه ، وهو سائر إلى دمشق ، وينظرون إليه ، قال : والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارس في ركابه ، وكنت أنا من جملة من كان معه ، وأما أولئك الذين

أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر ، فشلحوهم عن آخرهم[١] .

والجزاء من جنس العمل .

ما ازداد عبد بعفو إلا عزّا :

أوغروا صدر السلطان على ابن تيمية ، وأشاروا إليه بسجنه وبقتله ، فرفعه الله فوقهم .

يقول ابن تيمية : إن السلطان لما جلس بالشباك ، أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله ، واستفتاه في قتل بعضهم .

قال : ففهمت مقصوده وأن عنده حنقًا شديدًا عليهم . قال ابن تيمية : فشرعت في مدحهم والثناء عليهم ، وشكرهم ، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك ، أمّا أنا فهُمْ في حِلٍّ من حقي ومن جهتي ، وسكّنت ما عنده عليهم .

قال : فكان القاضي زين الدين بن مخلوف - قاضي المالكية - يقول بعد ذلك : ما رأينا أتقى من ابن تيمية ، لم نبق ممكنا في السعي فيه . ولما قدر علينا عفا عنّا[٢] .

يرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية شهروا به وسجنوه ، وقبل وفاته بأشهر ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله ، ولم يبق عنده كتاب ، ولا ورقة ، ولا دواة ، ولا قلم ، وكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بالفحم .

فكيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟.

إن شيخ الإسلام ابتلي بلاءً شديدًا ، ولكن السجن لا يحجب نور الإيمان ، يقول ابن تيمية : لو يعلمون ما أسدوا إليّ من الجميل بسجنهم إياي في القلعة ، ما كافأتهم عليه بملء القلعة ذهبًا .

وجعل يردد قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ [الحديد : ١٣] .

---

(١) البداية والنهاية (١٤ / ٩١ - ٩٢) .

(٢) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، للحافظ ابن عبد الهادي ص٢٨٢ - ٢٨٣.

وكان رحمه الله يقول: ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري ، أينما رحت فهي معي ، إن معي كتاب الله وسنة نبيه ، إن قتلوني فقتلي شهادة ، وإن نفوني فنفيي سياحة ، وإن سجنوني فأنا في خلوة مع ربي ، إن المحبوس من حبس عن ربه ، والأسير من أسره هواه .

وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين ، أو إحدى وثمانين ختمة ، انتهى في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة : ﴿ **إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾ [القمر: ٥٤-٥٥] ثم كملت عليه بعد وفاته، وهو مُسجًّى، ودخل عليه حفاظ الحديث لتغسيله ، ومنهم الحافظ المزي ، وازدحم الخلق على باب القلعة والطرقات ، وامتلأ جامع دمشق وصلوا عليه ، وحضرها نساء كثير حُزرن بخمسة عشر ألفًا . وأما الرجال فحزروا بستين ألفًا وأكثر إلى مائتي ألف ، وأغلق الناس حوانيتهم ، وكانت جنازته ثاني جنازة بعد جنازة إمام أهل السنة ، وصدق ابن حنبل حين قال : **قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز** .

وما استطاع ساجنوه أن يخرجوا يوم موته ؛ خوفًا من بطش العامة بهم ، فصاروا هم السجناء في يوم موته ، يا لذلهم ويا لعزه !!

ويرحم الله من قال يوم موته يرثيه :

بكت السماء عليه يوم فراقه ... أسفًا وجاء الغيث والأمطارُ
وبكى الشام ، ومُدْنه ، وبقاعه ... حفّت به من ربه الأنوارُ
والناس من باكٍ عليه بَحَرّة ... ودموعهم فوق الخدود غزارُ
وهُم ألوف ، ليس يحصي جمعهم ... إلا إلــه غافــر ستــارُ[1]
ما كان إلا شامة في شامنا ... وعليه من تقوى الإله شعارُ

ويقول الشيخ مجير الدين الخياط الدمشقي في رثاء ابن تيمية :

(١) أسماء الله توقيفية ، ومن أسماء الله السّتير لا الستار .

خشعتْ لهيبة نعشك الأبصارُ　　لما عليه تبدتِ الأنوارُ
ولأمة الإسلام حول سريره　　سامٍ إلى رب السماء جُؤارُ
ولرحمة الرحمن ظل سَجْسَجٌ　　يغشاهمُ وسكينة ووقارُ
كان الممات زفاف عرس حياته　　وبه النفوس مع الدموع تثارُ
قد كان مغناطيس أفئدة الورى　　أنْسا ، ولكن في القليل نفارُ
والناس أمثال الجراد،لهم على　　التَّابوت منه تهافتٌ ودوارُ
فكأنه يعسوب نحل نحوه　　حيًّا وميْتًا للفقوس مطارُ
يفنى الزمان وينقضي وبأحمد　　وحديثه تتحدث السمَّارُ

يرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية ، أرادوا محو اسمه من الوجود ، وأراد الله أن تتحدث السمَّار بحديثه ، سجنوه فسجنوا هم ، وطارت بذكره الأخبار ، حرقوا كتبه حتى لا تصل إلى العامة، وتمالأت على ذلك دول وعصور ، فما كان من أمره ؟

لصدقه وإخلاصه ، ما من صقع أو نجع أو كَفرٍ إلا وفيه كتب شيخ الإسلام ، وأتاح الله لها من الانتشار ما لم يتح لغيرها .

والجزاء عند الله من جنس العمل في الدنيا والآخرة .

وسيرة شيخ الإسلام لهذا الفصل مسك الختام .

* * *